مجموعة قصصية

وتكلم الحجر

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١٢م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٣٥٨٨/ ٩/ ٢٠١١)

٩,٨١٣
السيد، محمد حمدان
وتكلم الحجر/ محمد حمدان السيد ._ عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١٢.
(١٠٢) ص
ر.أ.: (٣٥٨٨/ ٩/ ٢٠١١).
الواصفات: / القصص العربية // العصر الحديث /

❖أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.



دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E- mail: daralmamoun@maktoob.com

مجموعة قصصية

وتكلم الحجر

تأليف

محمد حمدان السيد



دار المأمون للنّشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

١. الطفل القادم...١٣
٢. المعركة والتحدي ١٧
٣. رسالة من سعاد..٢١
٤. هنية..٢٥
٥. بيتنا...٢٩
٦. الأضحية ٣٣
٧. لسنا أحرص الناس على حياة ٤٠
٨. ويرحلون ٤٣
٩. فداء ترابك يا أقصى..٤٥
١٠. هدية العيد..٤٨
١١. فاطمة..٥٢
١٢. سوف نقاومهم، ولن نخرج ٥٥
١٣. إلا تنفروا..٥٨
١٤. وتكلم الحجر...٦١
١٥. حديث صحفي ٧٢
١٦. وجدت الرجولة...٧٨
١٧. اهتزت الأرض وربت ٨٢
١٨. شكراً لكم..!...٨٧
١٩. صرت يتيمة..! ٩١
٢٠. لا مخرج لكم..!! ٩٥
٢١. لا.. لن نغادر..!...٩٩



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله حمد الشاكرين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا محمد ﷺ، و بعد:

فهذه هي المجموعة القصصية الخامسة التي أُصدرها بعون الله، ولي في بداية سطورها كلمة موجزة أقولها، وهي تتلخص بالمحاور الآتية:

- الأدب بمجموعه وأنواعه فن مخترِق للمجتمعات، وهو من أكثر الفنون تأثيراً في تكوينها وبناء نظرتها، ومن هنا جاءت أهميته وخطره في الوقت نفسه، وأخص بالذكر من الأدب: القصُّ أو السرد، وبرهاني على ذلك، ما أولاه رب العزة في القرآن من اهتمام بالقصة وتنوعها في الموضوعات والأساليب.

- الأدب الذي لا يحمل رؤية عالية للكون والإنسان والحياة أدب عبثي، لا يشكل تماسكاً ولا شخصية ذات معنى واتجاه في الكتابة، تفرض بهما قواعدها على كل إنتاج لها؛ لينقل خبرتها الحياتية إلى المجتمع موسومة بتلك الرؤية المتماسكة، ولقد خفتت في العقود الأخيرة فكرة أو مقولة الفن للفن؛ لأنها لم تصمد كثيراً أمام السيل العارم الحديث، الذي جعل كل شيء يحدث في العالم ذا وظيفةٍ محددة. وبناءً عليه فقد وقعت التجارب الأدبية على الحقيقة، التي لا تعبث ولا تلعب، إلا إذا كان اللعب من أجل هدف ما، قائم على أساسات من بناء عام، يجوب كلمات الكاتب أو العالم أو الفنان، ويحرك العالم من حولهم برؤية مرسومة محددة المعالم واضحة

التفاصيل، قادرة على فتح السبل أمـام النـاس للمبـادرة والتقـدم والعطـاء الممرع.

- ولكي يكون الأدب قريباً من الناس _كل الناس_ يجب أن يتحلى بالمواءمة بين الشكل والمعنى، بحيث لا يجور الأديب في تدويناته علـى أحـدهما مـن أجل الآخر، كما أن الحق يقتضي أن لا يغرق نفسه بالغموض المطبـق، بـل يكتفي من الغموض بقريبه إلى الفهـم العـام، وأن يوظفـه في سـبيل وضـع القارئ في مواجهة عمق التفكر بالمقولات وأبعادهـا ومـا تحملـه مـن آفـاق رفيفة، لا من أجل إرباكه؛ لأنه حينئذٍ يرمي القارئ الكاتب وراء ظهره.

- مضى زمن ليس بالقصير على الحراك الإسلامي المعاصـر، متسـماً بضـعف الاهتمام بالأدب، وعدم الاعـتراف بأهميتـه بشـكل عـام وبأهميـة القصـة والرواية بشكل خاص في بناء المجتمعات وتكـوين أفكارهـا وقيـادة رؤاهـا، فكأن هذا الحراك لم تصله الأنباء عن تـأثيرات الأدبـاء الغـربيين في قفـزات مجتمعاتهم من ساحة فكرية إلى ساحة أخرى. ولقد ظل الأمر كـذلك عنـد الإسلاميين حتى استيقظ العديد منهم، وانتبهوا إلى خطر هذا الفن وأهميته في بناء الأجيال بناءً سليماً، وكانت البداية قبل أربعة عقـود مـن الزمـان لا غير، وكان هذا الموقف للاتجـاه الإسـلامي مـن الأدب شـبيهاً بموقفـه مـن الإعلام أيضاً.

- خلق الله الإنسان وأوكل إليه إعمار هذا الكون وبنـاءه، وإذن فـإن وجـوده ليس عبثاً أو لهواً، بل هو موظف من قبل خالقه لهدف عظيم ومهمة كـبيرة تتأسس على تقدم البشرية؛ مادياً، وفكرياً، وأخلاقياً، وسياسياً، واقتصادياً،

على أن يجري كل ذلك بناءً على منطلق الآية الكريمة: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وإذن فإن الوجود الإنساني يرتكز على النظام والوظيفة والرؤية المستندة جميعها على فكرة الإعمار ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١]، وليس العبث والهدم اللذين يقومان على غير منهج الله ورؤيته للكون والإنسان والحياة.

- هناك مقولة مغلوطة ولكنها سائدة عند العديد من الدارسين للآداب، ويكمن غلطها في قولها: إن الغرب هو مصدر تاريخ الإنسانية وأساسها، وأن ثقافته هي الثقافة، وحضارته هي الحضارة، وأن كل ما قالته الأمم الأخرى إن هو إلا فقاعات، لا تلبث أن تنفقئ عند بوابات ثقافتهم وحضارتهم.

ويتفرع عن تلك المقولة الخاطئة قولهم: إن القصة والرواية ليستا إلا اختراعاً غربياً خالصاً لا دخل لأمة أو حضارة أخرى في نشوئهما أو تطورهما.

غير أن الناظر في تاريخ الآداب الأخرى، سوف يجد أن الأمم والحضارات غير الغربية قد سبقت أمم الغرب في ارتياد ساحات السرد، ونخص بالذكر هنا رواد ذلك السرد في أمتنا من كتاب المقامات التي هي قصص قصيرة تتعرض للحظة شعورية من لحظات حياة الإنسان ومعاناته، فتسردها بشكل حكائي أقرب إلى القصة القصيرة الحديثة منه إلى الحكاية التي بدأ بها الغرب السرد في القرن الرابع عشر الميلادي، وهو سرد تعارف الغربيون على تسميته (بمصنع الأكاذيب)، حيث كانت تدار حكاياته في اجتماع مسائي لأركان أمانة الفاتيكان وأتباعهم في قاعة فسيحة من قاعات الفاتيكان، وهناك يقوم (الحكواتية) بسرد شفوي لحكاياتهم المصنوعة، وكان أشهر (حكواتي) عندهم (يوتشيو) الذي دوّن حكاياته في القرن

الرابع عشر الميلادي، إلى أن جاء (موباسان) في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، الذي طور الحكاية وكتب القصة الحديثة الشبيهة بحكايات المقامات العربية التي سبقتها، و كان قد سبقه في عملة السرد الفني الهندي (بيدبا) كاتب (كليلة ودمنة)، المنقولة إلى العربية، كما سبقه في العربية سرد ألف ليلة وليلة، وحي بن يقظان، وشهرزاد، وسيف بن ذي يزن، وروايات بني هلال، وغيرها؛ مما يجعلنا نؤكد أن القصة والرواية مجهود إنساني بنته وأنشأته وطورته الحضارات الإنسانية مشتركة، مستفيدة من تصوير الواقع، ومعالجة المعاناة الإنسانية.

- إن الكاتب الإسلامي عندما انتبه إلى أهمية القصة القصيرة في تأصيل العامل التربوي وتعديل الاتجاه الفكري والسلوكي، راح يرود هذا الباب ولو متأخراً، (فأن تأتي متأخراً خير من أن لا تأتي)، وهو إذ يخوض في بحر هذا الأدب النافع، لا يغض الطرف عن روعة القصص القرآني، وكثافة جملته، و توظيف المشاعر والمعاني لصالح الإنسان في إقامة الحياة الآمنة على الأرض. لا بل إنه يتخذ من هذا القصص نموذجاً وخطة وعبرة مع الاهتمام بالتقنيات الحديثة بدءاً من تكثيف اللحظة، وانتهاءً بتطوير الشخصية، ومروراً بالاهتمام بالمشاعر والأحاسيس والمنولوج الداخلي، إلى غير ذلك من أدوات السرد الحديث، وهو في هذا كله لا يكل من الاقتداء بالقص القرآني والبلاغة النبوية العالية الغالية، ولا يدير الظهر إلى تراث عريق في السرد الغائي، الذي سطرته أقلام جهابذة الأدب العربي الإسلامي على مدى القرون.

ولما وجدتني أحمل همّ دعوة الإسلام، وهمّ الارتقاء بمجتمعاتنا الإسلامية، وهمّ معاناة شعوبنا الرازحة تحت وطأة الظلم والاستبداد والاستعمار والغطرسة، ووجدتني وقد تكونت لدي إمكانية الدخول في هذا الباب الواسع، أقوم بتوظيف

إمكاناتي تلك، هادفاً إلى رسم المعاناة وتعيين سبيل الخلاص، وتوعية الأجيال وتعديل أفكارها وسلوكها، وإنهاء حالة الذهول والتبعية والتقليد.

وهكذا خضت هذا الغمار آملاً من الله التوفيق والعون والتسديد، وكانت هذه المجموعة القصصية الخامسة لي منذ بدأت هذه التجربة في سبعينيات القرن العشرين، وكلي أمل أن يوفقني الله إلى جمع عدد من القصص الإسلامي الذي نثرته في العديد من الصحف السيارة ولم يسعفني الوقت حتى اللحظة لجمعه، ولسوف تكون تلك القصص المجموعة السادسة إن شاء الله، ولا يغض ذلك من كتابات كثيرة نثرتها أيضاً في العديد من الصحف والمجلات العربية والإسلامية، وهي قد تنوف على عشرين كتاباً بعد أن تجمع، وتتنوع موضوعاتها، من التربية والإعلام إلى السياسة والفكر ومعالجة الأحداث والواقع، وباعتقادي أنها جميعاً تقع ضمن الهدف الإسلامي من الكتابة، الذي لا تشوف فيه إلى سمعة أو مادة، بل هي كتابة تحوز على مواصفات الأدب الهادف، ولا تتجاوز على الثوابت، لكنها باعتقادي تسدّ ثغرة، وتضع مدماكاً في البناء الغائي، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل، فإن كنت أصبت فهو من الله، وإن كنت أخطأت فمن نفسي، وأرجو الله أن يكتب لي الأجرين فإن لم يكن فهو أجر الاجتهاد.

محمد السيد

في ١٣حزيران (يونيو) ٢٠١١م



- ١ -

الطفل القادم

فنجان قهوة، وصباح وليد، ونسمة ناعمة، وشرفة حالمة، تتعلق بأذيال غيمة صيفية ندية وصوت مذيع يتذبذب بين الصحو والغفو، يأتيك بنبأ: طفل لم يمض على قدومه إلى الحياة طويل زمن، يجوب شوارع القدس بقارورة حليب فارغة، يبحث عن مأوى على الأرض التي تلقت أول نسمة حياة خرجت من صدره، يرنو إلى المسجد بعيني ذاكرة المجد، إلى القبة، التي تجوب بحر عينيه، شراع أمل ومحبة وسلام، يرفع أصبعين علامة نصر. وتوقظك صورته في الشاشة الصغيرة من كابوس فقدان الحس.. فتقول:

نيام.. نيام.. نيام.. حفنة شمس عذرية بين يديك، تلثم شفة الليل، بحدِّ الضياء، وتهدهد الصمت بترنيمة.. نيام.. نيام.. نيام. ورشفة من فنجان القهوة، فيسري في الرأس الصحو، ويستيقظ في قلبك حنين القربى، وأوجاع ذوي الرحم، فتنهلُّ دمعة حزن مكبوتة، تعالج حنجرتك بكلمة موؤودة: إلامَ النوم..؟ إلامَ النوم..؟

تفرك عينيك: لتطرد غزو النوم، وهاأنت تثّاقل إلى الأرض، وتعلو هاماتِ نفسك تثاؤبةٌ حمقى، ولكن بقايا نخوة ترتاد تخومك، تنفض عن وجهك آثار الغزوة، فتهب واقفاً، صائحا..

-ألق عن كاهلك سحر النوم، وابتسم للحجر السحر، واكتب على ظهر حجر، غداً يختبئ يهود داخل جحر.

ترتعد فرائصك للفكرة، وتنتفض جوارحك، وتنداح الجملة الأخيرة في أفقك، فتردد:

داخل جحر..! داخل جحر..! ويحتل ذاكرتك سؤال مستنكر:

- الحجر ! ولكن الحجر أساس البنيان، ها هو يرتاد وهو في يد الأطفال روح الإنسان!

ويسكن الحزن تقاطيع وجهك من جديد، وتُناوش الغفوة بوابات عينيك على عجل، فيعاود التثاؤب غزوه.. وبنصف فتحة عين، وبنصف صحو، رحت تدندن:

أضناني سهر الليل، وراء الخميلة

أقعدني السوط عن الفضيلة

ألهمني الذُّل إلى باب

لا يفتحه إلا النوم

إلا الصمت

إلا العجز

ويأتيك صوت المذيع قوياً عارماً هذه المرة..: في فندق الأحلام، حفل حياة، مطربة الجيل، راقصة من نوع ناري، تهز الخصر والأرداف، لتسكب الدماء في الوجنات الناعمة، فيطيب الراح وتخضلُّ الأرواح.. بادروا إلى الحجز، من نوافذ الحجز، في كل شرفات الأوطان، التي يحتلها الرقص والراح والنوم..!

ويتراءى لك الطفل القادم من بين ظلال الغفو يافعاً جاداً، يتناول حجراً، يأخذ مقلاعاً، يشد سكيناً إلى خصره، يتمنطق بزجاجة زيت، يفتح ثغرة في جبهة يهودي يتعملق.. وتأخذك: الحمية، فتهب مذعوراً من نومك.

فتجد الزوجة تدعوك ومائدة من نعم فياضة تحدوك، ووجهاً ناعماً يناديك، هلم إلى الطعام، اقترب موعد العمل.. فتغيب صورة الطفل والمقلاع والسكين والزجاجة، وتطير من الذاكرة أشتات الفورة، وتحضر هموم اللحظة، ويتراكض

جذب الطين في أرجائك لتلتهم المائدة، ويعلو صوت تجشؤ مقيت، وتسد نافذة الشرفة، وتنظر من خلف الزجاج، فإذا غيمة رمادية تأتي من الغرب، تمطر الأرض بأحرف عَتْب غامض، اصطفت الحروف جنباً إلى جنب، وشكلت في صفحة ذاكرتك جملة لن تنساها..

– آه لن أنساها، لكنني لست متأكداً من ذلك! فقد... وقد..

– ولكن ما هي الجملة..؟

– بيت الأحباب يُخرب..!

– بيت الأطفال يُسرب..!

عبث عبث عبث...!

أيد ملطخة ترسم خططاً غادرة، وتربصٌ من مكرٍ يسكن عيون الغيلان.

ويأتيك صوت المذياع ناعماً ناعساً مهدهداً:

على أنغام (التانغو) وفي أحضان الطبيعة الحالمة، تقضون ساعات حلوة، بين المازات اللبنانية ورائحة الشواء الشهي، وعلى أصوات العندليب(...) تمضون غرة من وقت، بادروا إلى زيارتنا، فكل الطرق في أوطان العرب تؤدي إلينا.. وعند آخر كلمة من صوت المذياع تنجم في أفقك صورة ذلك الطفل.. يبحث عن موطئ قدم..!

– وتفجؤك الصورة، وتنتقم من غفوك والدعوة، وتتسلل إلى رأسك حروف من شجر الغرقد، وأرقم من حجارة الأطفال، فتنطلق المخيلة في رحلة، لا تتعدى المسافات نحو الغرب. حيث غزة ما زالت تنتظر الرد، والمعتصمون الكبار في أكناف المسجد، لا ينفكون مصرين على نجدة الطفل، وعلى الالتصاق ببوابة السماء.

الطفل ما زال يحمل قارورة الحليب، ويبحث عن مأوى في وطن لم يُكتب

خطه بعد.

وتنسل إلى رأسك رائحة النوم، لتنقذك من صحوة الفكرة، فأنت لا تستطيع أن تداوم في ساحات الحقيقة لساعات طويلة، لأنك مدين للضرورة واللحظة، وترزح تحت نير اللقمة، وذل الهمسة، ويأتيك صوت يحدوك، إنه فاقع اللون والحجم والرائحة:

-ارفع عن نفسك النير والذل والعجز، وعش مع سيف الشمس بإخلاص.

ويفجؤك العجز وأنت تدير مفتاح السيارة، وتطلُّ بناظريك فتبصر الشوارع المأسورة، والشمس المكسوفة فيئن في صدرك لحن موؤود، وتحتل خيالك صورة الطفل القادم. وقارورة الحليب ما تزال فارغة تنتظر صحوة دائمة، متكئة على حدِّ السيف، وعزم شيوخ لا يغادرون الأرض.

- ٢ -

المعركة والتحدي

أ- التحدي:

كان أحمد في مواجهة ليفي تماماً، حيث وجه إليه سهاماً حادة من نظراته، لقد فهم ليفي من هذه النظرات معنى التحدي الموجه إليه، فغض النظر عن أحمد، مشيحاً بوجهه عنه، وعلى الرغم من أن زملاءه الجنود الآخرين كانوا يحيطون بأحمد كالمعصم، ويحاصرونه من أجل أسره، إلا أن وجودهم لم يطمئنه، تحسس ليفي بندقيته التي ركب على فوهتها قاذف قنابل الغاز، لعلها تشد من عزيمته، وجال ببصره بعيداً عن أحمد، كان الشارع الرئيسي في (رام الله) (الآتي من البيرة والواصل إلى دوار المنارة باتجاه المعاهد) منسق الأرصفة، تصطف على جانبيه المحلات التجارية المتنوعة، التي زينت واجهاتها باللافتات، التي تبين اسم صاحب المحل، ونوع المواد التي يتاجر بها، باللغة العربية، مترجمة إلى اللغة الإنجليزية في كثير من الأحوال، لقد جلب ذلك المشهد الذي راود بصر ليفي إلى نفسه بعض الاطمئنان، وقال في سره:

- إنهم منهزمون حتى في عناوين محلاتهم..

حاول للمرة الثانية أن يبتعد ببصره عن رؤية أحمد، إلا أنه لم يستطع التغاضي هذه المرة، فقد كان أحمد يركز نظراته عليه، ويتقدم بقوة نحوه، متخذاً وضعاً قتالياً... وتحركت شفتا ليفي بكلمات لم تكد تبين:

يا للّعين.. إنه يتحداني حقاً.. ولكن ماذا في يده غير الحجر، وهذا الإهاب الفارع.

وفي الحال فهم أحمد ما يدور من كلمات على شفتي ليفي فتمتم قائلاً: أهو التحدي؟

لكن ليفي قال في سره:

- إنك أعزل... وإنك وحدك... وأنا كما ترى لست وحدي... وتكفيني الحربة التي في راس البندقية. ولكن أحمد قبل التحدي، وصاح في وجه ليفي، وكأنه فهم ما يدور في خلده:

- لست وحدي أيها الجبان..!.

وفي الحال علت في المكان صيحات رفاق ليفي مختلطة بضحكات الاستخفاف

ليفي، اقبل التحدي... نحن معك... ها... ها... ها... ها.

ب- المعركة:

قبل أن يتخذ ليفي وضعاً قتالياً، تردد كثيراً، وتحركت في نفسه شهوة الحياة – أي حياة- وألقى نظرات متعاقبة إلى زملائه، إنه يحتقرهم؛ إذ يزجون به أمام هذا الفتى الفلسطيني، ويحرضونه على تحديه، كل التعاليم التي لقنه إياها رؤساؤه أصبحت الآن مكدسة في زاوية الإهمال من دماغه، وفي بؤرة واحدة أخرى اجتمعت كل شهوات الطين التي تجري في دمه.

- وترددت كلمات في صدر أحمد قائلة: إنني أتحداك أيها الوغد.. أتحداك..

قبل سويعات كان أحمد على مقعد الدرس، حينما هوجمت مدرسته من قبل هؤلاء الغرباء، لم يكن يخطر بباله في لحظة من اللحظات أنه سيترك دراسته ليخوض معركة الشهادة هذه، لكن دم (عامر) زميله في المدرسة هيج كوامن عميقة غائره في أحشائه، فانطلق يهدر ويضرب ويقاوم، حتى ساقته اقداره إلى هذا الموقف، وهنا تذكر أحمد ما قرأه في كتاب التربية عن الصبي الذي تحدى السلطة كلها في مملكة

اليمن القديم، حين دلَّ السلطان على كيفية الخلاص منه، مبتغياً من ذلك أن ينطق الجميع بكلمة الإيمان...

فانطلق أحمد كالسهم نحو ليفي، وصفعه صفعة مفاجئة قوية على وجهه، ثم عاد ووقف أمامه بوضع التحدي، تطاير الشرر من عيني ليفي، ولكنه ارتبك أمام انقضاضة أحمد الخاطفة، أعد حربته جيداً وتقدم نحو أحمد بخطوات مرتجفة، كان يحاول اغلاق اذنيه كي لا يسمع صيحات التشجيع التي تصله من رفاقه، إنه يحتقرهم، تشمئز نفسه من منظرهم، وأصواتهم، تبعث الدوار في رأسه.

همس في سره:

جرذان دنسة.. ورمى عليهم نظرة غضب واستخفاف، ثم تقدم نحو أحمد بتصميم

هذه المرة...

ولكن أحمد ألقى بنفسه كجلمود صخر باتجاه ليفي، فتلقاه ليفي بالحربة التي انغرست بين أضلع أحمد، وفي الحال ضجت في كيانه: الله أكبر.. الله أكبر، وشد أحمد البندقية من يد ليفي، الذي تراخت أوصاله، وأخذ يتراجع شيئاً فشيئاً أمام أحمد، الذي أخذ يتقدم نحوه، وهو يشد على البندقية التي دخلت حربتها في صدره.

ليفي الآن لا يسمع إلا أصواتاً تضج من كل مكان، تحيط به وتطوقه، لم يعد يرى زملاءه لم يعد يسمع أصوات تشجيعهم، إنها أصوات عربية.. تقول: أنا خالد أخوك يا أحمد.. أنا حامد.. أنا خليل، أنا عدنان، أنا جنين، أنا نابلس، أنا يافا، أنا حيفا، أنا القدس... المسجد الأقصى.

عندها أحس ليفي وكأن الحربة في صدره هو، لا في صدر أحمد.

وضع ليفي أصبعيه في أذنيه وهو يتراجع، وأحمد يحملق به، أعطى ليفي قدميه

للريح، وأدار ظهره واتجه نحو الأفق في الشارع الطويل، لكنه وجده مسكوناً بأحمد، ركض نحو اليمين فوجد أحمد أمامه، واتجه نحو الشمال فكان أحمد تجاهه ووراءه ومن بين يديه، رفع أصبعيه عن أذنيه فوجد الصوت ما زال يردد: أنا... أنا...

توقف لحظة عن الجري، ونظر في الأفق الغربي، كانت صورة أحمد تضج فيه حتى السماء، ثم تطلعُ من الشرق، وتتوارى الشمس شيئاً فشيئاً خلف الجبال ورجلا ليفي تذبلان تحت جسمه الواهي، ويسقط على الأرض مغشياً عليه، بينما كان أحمد يتشهد..

- ٣ -

رسالة من سعاد

النهار يطل ربع اطلالة.. والليل يتثاءب على حافة النهار تثاؤبات متثاقلة الخطى...

والسكان يدفعون بأول نسمة حياة نحو الشوارع، لكن الآليات المجنونة تطحن الآذان بضجيجها وتقمع الحركة، والقنابل الغازية تنفث سمومها في الشوارع المتربصة بالغزاة الغرباء، وهناك في منزلٍ غير بعيد من تلك الشوارع، كان الغثيان الذي يدنو من حدود التقيوء يزاول فعله في رأس سعاد... والشعارات البلهاء تتجاذب روحها... إنها تسمع في التلفاز، في الراديو، وتقرأ في الصحيفة السوداء عن حقوق المرأة..

المرأة تقاتل من أجل إثبات الذات

المرأة تعمل من أجل الانتصار على الرجال..

المرأة لم تخلق من أجل البيت، من أجل الأولاد.. من أجل الأحضان..

المرأة رجل بلا شارب.. ولا لحية... ولكن لا يهم.. فالإنسان هو الإنسان

وتثور في رأس سعاد ضجة، وفي قلبها عراك.. فهي تشاهد كل يوم أن:

- الطفل يقاتل بالأحرف المتعثرة على شفتيه.. والفتى يتعامل مع الحجر المقدس بين يديه.

- والشاب.. يهز (المولوتوف) قبل أن يلقيها على كاهل الآلية - الموت-

لأنه يؤمن أن المعركة حياة أو موت، وهو قد صمم على الحياة..

– والكهل ينظر إلى الأفق، ويدير الأمور في رأسه، ثم يترك العمل في مزرعة الغريب لأنه أصبح مؤمناً: أنْ ههنا الحرب.. في الشارع، في إلقاء الجسد الملغم فوق دبابة يهود

– والمرأة الجادة خلعت عن جسمها عبودية إظهار العورة ودعوة الجنس التي تاجرت بها في الصحافة سنوات طويلة، ثم ارتدت سترة النجاة خماراً وجلباباً.. وحملت روحها، مشاركة شقيقها الرجل بالغارة، لأنها علمت أن ههنا مكانها... وليس في معرض الشعارات والدعايات، التي يتاجر بها أرباب المساواة المطلقة ودعاة الحقوق، ومروجو تجارب الغير.

بين الحياة والموت وقفت سعاد حيرى:

أأنام بين كوابيس الشعارات وبخورها الزائف، والشباب والشابات يدوسون كبرياء الظلم، ويستيقظون على طعام: (فلسطين لنا).. (فلسطين حرة)؟! وها هي القدس تصحو، تغزوها الشمس، تلعب بجدائلها نسمات الكبرياء، ويقفز في أحضانها أبناء الأنبياء، وسعاد ما تزال بين الصحو والغثيان، وتضج في رأسها ألف خرافة، تقول لها بلهجة الرجاء:

الحقوق أولاً... الحقوق!

وعلى حافة الاستيقاظ همست في أذنها نسمة الكبرياء بحنان:

– أأنت بنت القعقاع؟ بنت عمرو..؟ أم أنك والصهيونية سواء..؟

– ثارت ثائرة سعاد، قطبت الجبين، تجمعت العواصف بين عينيها.. أرخى الغضب سدوله على السحنة، ورددت بأنفاس متلاحقة:

– لا.. لا.. وألف لا.. لست كالصهيونية أبداً..!

وفي الحال.. فاجأتها النسمة بسؤال لم يخطر لها على بال:

- ولكنك مثلها، كاسية عارية، الأفكار نفسها، النداء نفسه، الآمال نفسها.. لقد ملؤوك بها، ولكنك لا تشعرين، فأنت تقاتلين بعناد عجيب من أجل حرية شوهها العري، من أجل حرية أصابتها سهام التنظيرات القاتلة! من أجل تقليد حياة النساء هناك..!

صاحت سعاد بعصبية حميمة...

- لا .. لا .. أنا القدس.. والقدس أنا..

وجاءها جواب النسمة:

- عجباً وكيف ذلك ؟!

وهمس في أذنها إيحاء على شكل سؤال:

أليس لكل ادعاء برهان، لا ينكر نضال الحقوق؟

نعم.. ولكنه نضال لا يسكن في دائرة الأفكار الغريبة، لأنه حينئذٍ سيكون سيلاً يصبُّ في نهر المعتدين.

- والمعركة التي نراها على سطح الجرائد والمجلات من أجل المرأة؟ وضج هذا السؤال، فهو يتردد في أرجائها، ليرتطم بحافة النهار القادم بلا استئذان، وقد أوحى إليها بالقول في سرّها أن:

- لا تعجبي فالمنهزمون دائماً يتبنون معارك غيرهم..

- هكذا إذن؟! أي والله إن هذا لهو الحق..

- ولكن أما زال النوم يملأ جفنيك..؟

اهتزت سعاد من الرأس إلى القدمين، وقفزت في الحال، فإذا هي امرأة حقيقية، بجلباب وخمارعندئذٍ نادتها القدس قائلة:

- الآن يا سعاد.. الآن..

- وقالت الشوارع: في الأحضان يا سعاد.

- رآها الشباب الذين يحملون زجاجات المولوتـوف.. فقـالوا بـاعتزاز: بـدأنا الآن. ارتفع النهار ربع قامة أخرى، فأصبح فوق الأفق منه نصف إطلالة، والليـل بدأ يغفو بعد أن كان صاحياً يرقب، ويدلي بإيحاءاته المتخاذلة.

ورآها السجان، فتوارى قليلاً عن الأنظار، ثم أظهر نصف وجهه وقال:

لا تيأسوا أيها الأسرى..!

كانت سعاد على موعد، تناولت زجاجة، وألقتها على أول حافلة وجـدتها في الشارع..

وعلى حافة الليل المودع.. الذي أضاءته زجاجة سعاد غنت حمامة:

سعاد إمام

بنت السلام

طائر الأحلام

بسط ذراعيه لنور الصباح

مضمخ بعطر الأوطان

ينهل من حضن نظيف، وجفن لطيف

مزين بحسن العمل

وفرح اللحظة

واجتماع الإخوة في أحضان النضال، والسلام عليكم ولكم السلام..!

- ٤ -

هنيـة

تأكلون...!

تشربون..!

تنامون..! تضحكون!

تنظرون إلى صور التلفاز كالبلهاء، ثم تصفقون كالببغـاوات، ثـم لا يعـدو رد فعلكم أن

تقولوا: عظيم هنية..!

ولكن: من لهنية ..؟!

بالأمس بنت عمورية نادت وامعتصماه، فلباها الليـث بجـيش غضِـب لجِـب. واليوم تصيح هنية وألف هنية، وتتشابك أصداء النداء في كل اتجاه، ولكنك لا ترى إلا عيوناً حائرةً، وقلوباً غبيةً، وسؤالاً أبلهاً: ما قصة هنية...؟

شهور مضت، في كل بيت حريق، في كل شارع حديث، على بـاب كـل قريـة سدود وحواجز وعلوج، وفي كل قلب نار تشتعل، وما زال يسأل:

ما قصة هنيـــة..؟

سعيد شهيد، فريد جريح، بيـت خليـل أنقـاض، خديجـة معتقلـة، قريـة سـالم محاصرة، في خان يونس ممنوع التجول، في الشاطئ هدم، في الخليل رصـاص وهـدم وقتل، في جنين هدم وإبادة وضرب وأسر ومنع.. في كل اتجاه زوبعـة، والرصـاص المصبوب يدمر كل شيء إنساني، وما زال يسأل:

ما قصة هنيــة...؟

في شوارع باريس احتجـاج، وفي شـوارع بـون مسـيرات، وفي شـوارع لنـدن هياج، حتى شوارع تل أبيب. شهدت ضجة وصيحة، في الشرق والغـرب حـديث، في الليل تفتيش، في النهـار رصـاص وتجريـف، في الصـبح مـداهمات، وفي المسـاء حجارة، وما زال يسأل:

ما قصة هنيــة..؟

أمشتاق أنت لسماعها؟ من أي شارع عربي أنـت تتحـدث؟ مـن أيـة (فـيلا) حالمة تنطلق حنجرتك بالسؤال؟ هل أنت نائم وتسأل من خـلال حلـم سـعيد؟ أم أنك غافٍ على صوت أم كلثوم، إلى جانب مـذياع، تخـدش غفوتـك صـورةُ هنيـة بسَوْرة السؤال؟

أظن أن السؤال قد خطر ببالك، وأنت تتابع مبـاراة كـرة القـدم، فأحببـت أن تتفكه به، فرميته من جانب كتفك الأيمن، وأنت تتابع باهتمام سائق الكرة.

لا.. قد يكون السؤال قد خطر لك، وأنت جالس تلف رجلا على رجل، وقد تدلت ربطة عنقك حتى ارتطمت بالأريكة الفخمة، ورحت تتـابع خيـوط الـدخان الرمادية المتصاعدة من غليونك حتى السقف، المـزين بالـديكور الأنيـق، في إحـدى غرف دور الصحافة.

– آه فطنت الآن.. ألم تكن في رحلة استجمام مع العائلـة، حينمـا أحببـت أن تدير حديثاً، فتقطع الصمت الذي ران على الجلسة الهانئـة، بـين الظـلال، ورائحـة الشواء...؟

– لا يهم.. من تكون، وكيف تكون، ولماذا تسأل، المهم أنك تسأل:

ما قصة هنيــة؟

اسأل الصمت الراعب..

اسأل الليل الساجي..

اسأل القرار المأسور..

اسأل جموع المتفرجين..

لا.. لا.. أبداً.. اسألها هي.. نعم هي (هنية)، اسأل غزة؟ اسأل البيت الذي كانت فيه...

– آه... نعم اسأل العلج الذي فعل.. أتريد الحقيقة؟ أتريد الواقعة كما هي..؟ اسأله... فسيقول لك:

من هنا دخل.. هذا الباب طواه في داخله.. إنه بيت عربي محمدي.. دخله فتى عربي، كنت ألاحقه، وعندما وقفت أمام باب المنزل العربي.. راودت نفسي أسئلة راعبة..!

– أأدخلُ...؟ أم أعودُ...؟ لماذا لا يكون البيت مملوءاً بالجن، بالإنس، بالرجال، بالنساء، بالأطفال؟ كلهم يحاربون، آه من حربهم..! آه من سلمهم..!

– أأدخلُ..؟ لا .. لا لن أدخلَ.. لو رآني طفل فلن يسكت. ولكن الأوامر: أن أدخل فلأدخل.. أوه.. هذه البارودة في يدي، وأنا خائف؟! ولكن قاتلها الله من بنادق..! تِ..ت..تِ.. الرصاص يلعلع في جميع الاتجاهات داخل ساحة الدار الواسعة.

ذلك هو طلبتي، إنه عند الدرج، يُحاول أن يختبئ، سألحق به حالاً، لن يستطيع التحرك والرصاص في يدي، أوه.! لكن العزم في ساعده، والإرادة في قلبه، لا يهم لا يهم.

– قف قف قف.. أيها...!

تِ.. تِ.. تِ.. توقف سائد، عندما لم يجد مفراً، وألقى العلج بثقله، وثقل بندقيته، على كتف سائد وعنقه من الخلف، ثم صاح بصوت مرتجف:

- أمامي يا (...)

- وما إن خطا الاثنان خطوات قليلة، حتى سمعا زغرودة، من طرف باحة الدار، توقف العلج، وأدار عينيه في الساحة.

- ها هي.. نعم ها هي... تنشر الغسيل.. كأنه يعرفها..!

محمدية، أليست هي أخت هؤلاء وبنت هؤلاء...؟

وفجأة صاح.. ما هذا..؟ اللعنة.. إنه حبل مشنقة!... ولكن لمن..؟

الزغرودة والحبل يتأرجحان، إنها تعلق عليهما جثث زملائي، ها هي تتقدم لتضع طرف الحبل في عنقي ! لا .. لا.. إنها ما زالت تزغرد والغسيل في يدها.

- يا للعنة.. كلهم يريدون أن يشنقونا..

ولكن لا .. أنا من اقتحم الدار، وملأ الساحة بالرصاص..!

- لا .. لا .. لن تتقدمي نحوي، خذيها..

تِ .. تِ .. تِ.. وترنحت هنية قليلاً، وهي بعد لم تكمل الزغرودة، وسقطت على الدرج.. وتضرج الغسيل بدمائها، فأصبح نقيا كماء السماء، بينما كان (بريجدير) يهود.. يقول أمام اللجنة: هكذا كانت الأوامر. !.

– ٥ –

بيتـا

(١)

تطل ببحر خضرتها السمراء من بين أجفان الليل، على صفحة القمـر، الـذي يسترق إليها نظرات خجلى، من بين رمـوش مخضـلة، تلـك هـي بيتـا: مـاء أزرق، وجبل أسمر بالخضرة، وطرقات ممنوعة، وعيون تقدح شرراً، وأيـد مشـدودة علـى الحجارة، اصْعَدْ إليها فهي في كبريائها لا تنزل إليك، عرّج على أحيائهـا والبسـاتين الفوقا والتحتا، لا يشبع النظر من مرأى النسور في أوكارهـا، ولا يمـل الوقـت مـن كرّاتها فوق القمم.

(٢)

عندما تدخل إلى القرية لا تشـغل بالـك في الـتفكير: أي طريـق تسـلك، عـن يمينك أو يسارك، أمامك، خلفك، لا يهم.. فـأي طريـق سـوف يقـودك إلى أوكـار النسور، ما عليك إلا أن تفتح ذراعيك لتعانق الحب، لتعانق المجد والنور، إنـك لـن تحتار أبداً فكل ما يحيط بك يذكرك بوقفة، يذكرك ببطل وومضـة، الله أكـبر تسـكن الأنحاء، يطوف سناها الأرجاء، تعانق الأسمـاع بنغمـة شـوق، عـرج علـى البوابـة حيث المساجد تدفع...

(٣)

هنا على البوابة في مدخل القرية، في اليوم الأول جاء العسكر، أحذيتهم تقرع حجارة الجبل، لكن الحجارة كانت صعبة، كانت غضبى، مزقت أحـذيتهم كسـرت

فوهات رشاشاتهم، ثُلة من أطفال: بنات وبـنين انحـازوا إلى حجـارة الجبـل، كـانوا صفاً واحداً متراصاً، هم والحجارة والإرادة والقدر.

في طريقهم إلى الأطفال مزقوا البرقع، قتلوا مئة نفـس مـن آل الحيـاء، داسـوا بنعالهم الممزقة فوق تخوم دواخلهم، التي خلت من أية علامة من علامات الرجولة

انقلبوا بأعين الأطفال إلى أشباح همجية قادمة من عالم غريب..

بصق طفل على الأرض وقال: أيها الأخوة، بهمة الرجال فَلْنُذِبْ الأشباح

وتساقطت الحجارة، السماء تمطـر حجـارة، الأرض تنبـت الحجـارة، الأيـدي الصغيرة تقذف الحجارة.

الأشباح أغمضت الأعين، وقذفت ناراً مـن بـين أنيـاب وحشـية، زاعمـة: أن النار مقابل الحجارة دفاع مشروع، وكانت غارة.

محمود الصغير ديس.. خالد يستنشق الغاز فأغمي عليـه، طفـل رضـيع يجـأر، وكان فوه يلتقم ثدي أمه، فلم يصل الصوت.

أبو عامر الشيخ الفاني يسقط من وكزة علج بفوهة بندقيـة، أم سـعيد الحامـل تسقط حملها من ضربة (بسطار) (بطل) في بطنهـا..!، عسـكري خـائف مـن حجـر يطلق رصاصة وهو مغمض العينين فتصيب يهودية من عسكره

يصيح جميع العسكر: يهودية تموت.. تموت.. تموت.. هياج وحشي: أصـوات العسكر تتعالى: يهود لا يموتون.. الموت للأطفال خلق..

لأطفال العرب، فقط، لأطفال العرب..!

(٤)

بيتا تقتل امرأة يهودية، طارت الأخبار على الأثير، وفي المكتوبات المسوّدة من الأوراق، قالوا ما قالوا، لا يهم ما قالوا..

إنهم فعلوا. وعجيب ما فعلوا.. ألم أقل لكم: إنهم قتلوا العديد من آل الحيـاء في الطريق إلى بيتا..

أول يوم قتلوا الأطفال، داسوا الشيوخ، أسقطت النساء الحوامل بفعل الغـاز، بعمل البارود.

لم يشف الحاقد غليله: أن رأى طفلاً يتضرج، أن رأى شيخاً يتهـاوى، أن رأى امرأة تسقط الحياة من بطنها.

في اليوم الثاني الشباب تكسر عظامهم، يقادون إلى سيارات الأسـر بالضـرب بالشتم، بالإهانة، يقادون وتصيح إذاعتهم (ديمقراطيـة) في بحـر مـن قمـع وتصـيح شجرة لوز: (اضرب بحجر الصحو، فلن يفل الغدر إلا الشمس، ينبوع الخير يتفجر من قلب الحجر، فيض من شمس نهار يتدفق، من أيد تقبض على الحجر..

كشفت شمسك أيها الحجر ليلهم المتداعي.. اطرد غفوك ولـو لحظـة، جاهـد صبرك أن يتبرج، ليطفو فوق الساحات المحترقة..)

(٥)

طفل يتنحنح ثم يطلق بسمة، ثم يهوي علـى حجـر وهـو يـردد: لـن يكتفـي ليلهم بما فعلوا، غدرهم أكبر..

لقد صنعوا من موت يهودية برصاصة أحدهم قضية، يدبرون من ورائها محنة، لكن بيتا أكبر، وفلسطين أصبر.

أردف طفل آخر: لنرى بعـد القتـل، بعـد الأسـر، بعـد إسـقاط الحمـل مـاذا يكون..؟

تابع ثالث: الولادة.. الولادة.. حبل متصل بحياة فلسطين.

عاد الطفل الأول يقول: انظروا.. انظـروا إلى هنـاك: غابـة الزيتـون الخضـراء تغيب خلف غبار الهدم، ألا تسمعون الانفجارات؟

إنهم يهدمون المنازل، ألم أقل لكم إن غدرهم أكبر.

ويقول الطفل الآخر: لكن إذاعتهم أثبتت أن قاتل المرأة أحد جنودهم

ويأتيه صوت الطفل الثالث: إنكم مخدوعون إذن بترهاتهم..!

ألم تسمعوا أيضاً عن إبعاد الرجال عن بيتا وعن فلسطين؟ هل تصدقون أن كل ذلك من أجل موت امرأة منهم؟

ويصل إلى الجميع صوت مبحوح، مختلط بعزم جامح، فيلوون الأعناق نحو مصدر الصوت، كان الكهل (أبو محمود) يحدث نفسه، وهو يجلس فوق صخرة هويشاهد غبار الهدم فيقول: بيتا: غابة زيتون أسمر، تزين هامة شيخ موتور زجر، تقطر شرفاً..

تصحو في عينيها الفكرة

وسط ردى أحمر

تأخذ فأساً، تحرث حقلاً

تضرب رأساً..

عبأت الكبر زيتوناً أخضر

بيتا.. في حضن الجبل الأنور

ترتاد رياض الوطن الأخضر

تنبت في حلم الأطفال

شذى عنبر

وتحوم، تحوم، تحوم

وتعود تهدم حلم

الغدر الأغبر...

فينحدر الأطفال يغنون ترنيمة أبي محمود ويكرون على العسكر، ويعبق الفضاء بألله أكبر.. وبيتا.. غابة زيتون أسمر..

- ٦ -

الأضحيـة

افتح بابك، أغلق بابك، عيد يمضي، عيد يأتي، شوارع مسكونة، أحياء رهينة، غزوات تتريه، تستهل النهار بالصلب، تقول لهولاكو: قم لأقعد مكانك، جاءك من يشتم رقة قلبك.

يطوف بعينيك وجع المهاجر، ويسكن قلبك ذل بطاقـة الطحـين، تبحـث عـن مخرج، يشعر بألم خاصرتك طفـل المسـجد، رجـل المسـجد، يحـرك رحـى طـاحون المخرج، يحطم يداً جثمت على صدرك دهراً، تستنشق الآن عطر المسـاجين، وتقـرأ في سفر الرحيل، عودة السنونو، تزقزق شاعرة بدفء الخناجر المكبرة. ومـن جديـد يعاودك اللون الأغبر، فيرتسم في أفقك كابوس يتـبختر، يقـذف بآمالـك إلى قيعـان الركل (بالبساطير) إلى طين الأسر، وليل المداهمات، يُشنق أمام عينيك ابـن اليـوم، ويُكتب على اللافتة المعلقة فوق جثته: (هذا جزاء المجيء إلى الحياة).

لكن صوتاً غامضاً، يملأ أرجاءك بالعزة:

- هل هذه، غزة..؟
- نعم غزة.. ما الذي يريبك فيها..؟
- أنتِ غزة ؟!
- نعم.. غزة.. بنت الشاطئ الشمسـي، عـين هاشـم اليمنـى، ذراع الشـام الطويلة القادرة.

أقدام المجد تدوسك، إذ أقدمت على السؤال وتتردد:

وهل هذا سؤال يقال..؟

ويجول في خاطرك جواب، يرتاد محياك بجمرة هشة، ثم تنطلق من شفتيك همسة:

- وهل من غرابة في السؤال؟ ثم تتذكر أنك في وسط المحنة

والآن تنهمر الرطوبة البحرية بغزارة في شوارع غزة، الخالية إلا من جند الغزو، وبضعة أطفال يداعبون الحجارة..

ويندفع في غزة شواظ شمس تموز، وأنت في فراشك الوثير، تحاول منع تسرب أية موجة حرٍ تهاجمك، وخزة ضمير جاءتك على حين غرة، تقول لك:

- أين منك غزة الآن..؟

إنك في أمان داخل فراش وثير، وهي في قلب الغزوة، تتقلب في الفراش إلى اليمين وإلى اليسار، تفتح عينيك، تفركهما، تستغفر، وتحوقل، تشعل النور، تمد يداً مرتجفة إلى الرسالة الملقاة فوق المنضدة الصغيرة، القابعة إلى جانب سريرك، وتقرأ...

أخي خليل.. طريد المهاجر

- هل تذكر أريج الرياحين في حديقة بيتنا..؟
- هل تذكر فوح زهر البرتقال والليمون في يافا..؟
- هل تذكر العجمي..؟
- هل تذكر هدمه عام ٤٨..؟

لقد عادوا للهدم.. هم هم .. يهود كما يعرفون ويفهمون!.

خليل.. لقد سمعت اسم أخيك سعيد في الإذاعة يتردد،إنه الشهيد، أتريد القصة بالتفصيل؟

ظني أنك تصر على سماعها

إذن إليك هي كما حدثت:

سعيد يتربص بالعسكر، مع ثلة من الشباب، في الشارع الرئيسي، والعيد على الأبواب، والأضاحي تُشترى وتُهيأ.

- لم نشتر أضحيتنا بعد.. (قال سعيد محدثاً نفسه بقلق)

إلا إنه سرعان ما تذكر أن اليوم هو (الوقفة الصغرى). فتنهد وبدت على محياه علامات الرضا، ثم أضاف بهمس هذه المرة:

- لا مكان لدينا تبيت الأضحية فيه، والدي ينتظر صباح العيد ليشتريها.

عند وصوله إلى هذه النتيجة، ندت من حنجرته حشرجة مختلطة بدمعة، وتاهت عيناه في أفق الشارع، حيث سحب من الدخان، تعانق السماء وغرق في تأمل حزين:

- قد لا نشتري أضحية، فهم لا يتركون لنا الوقت، وقد لا نصلي العيد فقد يأسرون المسجد في اللحظة الأخيرة.

- نصلي في العراء..

نعم في العراء، وهذا ما نحبذه.. وعندها تطيب الأضحية، وتقر العيون

- ما أحلى حديث النفس..! هكذا قال سعيد وهو ينظر في وجه جاره وصديقه مستفسراً..

فابتسم صديقه وأجاب:

- الأطفال والشمس في سباق مع الغد، أيهما يبزغ قبلاً؟

رد سعيد وهو ساهم: إنهم يضعون في طريق البزوغ حواجز: التجويع المحاصرة، القتل، الهدم، الإبعاد.

ثم أردف: ولكن لا.. لا.. غداً سوف يبزغون، قبل الشمس، كحقل الربيع،

يقطر ندىً ويعبق أريجاً.

أخي خليل:

- هل تعبت يوماً من شراء الخبز في مهجرك..؟
- هل شعرت في لحظة من اللحظات أن رغيفك ورغيف صغارك الزغب مهدد؟

أظنك نسيت، أو أن الأيام أنستك تعب الحصول على الرغيف، أيام الهجرة

- اذكر إذن فضل الحجر! الذي عليه نُكَبِّر ثم نرمي، فهو الذي أعاد الذاكرة إلى رؤوس الجميع.
- آه نسيت أن أروي لكَ حادثة: في أحد الأيام مر واحد من أولئك العسكر، أمام بيتنا، وكنت ساعتها أضع العجين المرقق فوق الحجارة الصغيرة، التي تصطلي بالنار، فتُصيِّره خبزاً، وذلك بعد أن أسروا الأفراد.

عندها صاح ذلك العسكري كالثور:

آه.. الحجر..! آه .. منه..! به يقاتلون، وعليه يخبزون، فكيف يجوعون..؟!

كان سعيد يقف بجانبي في تلك اللحظة، وقد أخذه الضحك، حتى استلقى على قفاه لما سمع طاسة الحرب، التي على رأس العسكري، ترن من وقع حجر، وقد راح العسكري يهرول وهو يصيح:

يجب أن نخفي الحجارة من الأرض، يجب أن نفرغ أيديهم منها..!

وفي الحال هاجمتني الأفكار متوالية، وراح خيالي يسرح بعيداً،

أخي خليل:

- هل عشت طين الأسر وهو يكبل أفكارك بأنواع الخوف..؟
- هل حاولت النوم مرة وبصرك ثابت لا يغادر السقف، ورأسك يغزوه

ألف كابوس

- هل فضلت أن تكلم الأفاعي، على أن تنظر في وجه واحد من أولئك الذين يأسرون الكلمة في فمك، وهو يدَّعون أنهم أصدقاء؟

هل ..؟ هل..؟ هل..؟...

ولكن لنعد إلى سعيد الآن:

ها هو يتربص مع أصدقائه بالأوغاد، وها هم قادمون، إنهم كالثيران الإسبانية يختبئون خلف الآليات، وما إن يلوح لهم طفل، حتى يتبارون في الركض والإطلاق..

هز سعيد الزجاجة الحارقة في يده،، ووازن جلستها في راحته، ثم نظر إلى رفاقه مخاطباً إياهم بلهجة واثقة:

- جاهزون طبعاً يا إخوان..؟ وتلقت أذناه جواباً جماعياً

- طبعاً يا سعيد..

بسم الله.. الله أكبر، وانهالت الحجارة والزجاجات نحو الآلية، وبالمقابل بدأت قذائف الغاز والذخيرة تتوجه نحو الأطفال واليافعين والشباب، وبينما كانت الآلية تحترق، والثيران تتابع قذف القنابل والرصاص، تسلل الفتية كلٌّ إلى بيته.

أما أضحية العيد، فقد كانت في زاوية من الدار، كبش أملح أقرن، يصلنا صوته: ماء، ماء.

عبدالله شقيقنا الثاني، يهيئ نفسه، لذبح الأضحية، والوالد يرقب الموقف بقلق، وسعيد كان خائفاً يترقب لكنه كبّر لصلاة الضحى؛ أملاً في الخلاص من حالة الترقب.

سعيد في صلاته، والوالد في قلقه، وعبدالله في شغله، واليوم عيد الأضحى.

فجأة تحطمت البوابة الخارجية لبيتنا، وتداعت أصوات الثيران هائجة،

اندفعت نحو الغرفة التي نحن فيها، ولما كانوا في مواجهتنا وسط الغرفة، التقت العيون، وكان فيها كلام كثير، قال أبي وعيناه تقدحان شرراً:

- أظن أن اليوم عيد..!

أطرق كبيرهم قليلاً، ثم نقل بصره بين جنده وأهل البيت، كان الصمت ثقيلاً وئيداً، قطعه كبيرهم صائحاً:

- أنت الذي تصلي.. نعم أنت تعال هنا، أنت الذي نريد قبل يومين هاجمتنا في الشارع، وحرقت السيارة..

ولما لم يتلق على طلبه جواباً، وتابع سعيد صلاته، لقم الضابط بندقيته وصاح بصوت خائف متهدج هذه المرة:

قلت لك تعال بسرعة، ألم تسمع يا جبان..؟!

وحاول أن ينهال عليه بالأخمص الخشبي، غير أن الوالد كان منتبهاً، فبادره بدفعة ألقت به على رفاقه، وأتبعه بصيحة انطلقت من حنجرته بعد أن فقد الصبر:

- لا .. لا.. ليس منا جبان.. أنتم الجبناء.

تدارك كبيرهم الموقف، فشد جسمه بعد أن كان يترنح، وتقدم نحو الشيخ، وهو يبصق الكلمات الشوهاء:

- هكذا إذن أيها الوغد! أنت الشيخ الكبير تفعل بي هذا؟!

ثم انهال عليه بعقب البندقية، حاول عبدالله أن يدافع عن أبينا الشيخ، ولكن الثيران تكاثرت على الرجلين بالأعقاب، فاصيبا وسقطا.

لم أضيع الوقت، تسللت أثناءها إلى المطبخ، وأحضرت السكين، وما إن وطئت قدماي أرض الغرفة، ورأى سعيد السكين في يدي، حتى سلم من صلاته، وخطفها من يدي بحركة سريعة.

كانت الثيران تصوب بنادقها نحوه، وعيونهم تكاد تقفز من محاجرها، وقد أخذ

سعيد وضعية الهجوم، بينما كانت لحيته تهتـز مـع اهتـزاز فكـه، الـذي يصـر علـى أسنانه، فيتقاطر بعض الزبد من زاوية فمه، فيحـاول أن يلعقـه بلسـانه، وهـو يهـز السكين في يده، ويوازن قبضته عليها.

كان كبيرهم في مواجهته تماماً، يهز البندقية، ويسوي الحربـة أمـام بطنـه باتجـاه سعيد، وهو يصيح:

- أنت الذي نريد، أنت ذو اللحية والصلاة، نريدك حياً..

وتبادلا النظرات، وساد صمت راعب للحظات، قطعه سعيد قائلاً:

- أيها الهمج.. لن تنالوا مني شعرة وأنا حيٌّ

قهقه الكبير بمجون، ووجه حربته نحو صـدر سـعيد محـاولاً النيـل منـه، لكـن سعيداً نحى جسمه بعيداً عن اتجاه الحربة، فأصـبح صـدر عـدوه بـين يديـه، فـأودع سكينه في قلبه.

جأر الضابط بألم، وارتمى بجسده الخاوي على سعيد، وصـدره يتـدفق دمـاً تِ تِ.. تِ تِ.. رشقات متتالية، وجهها العسـكر نحـو سـعيد، ثـم أداروا ظهـورهم، وولوا، وهم يحملون كبيرهم، بينما راح سعيد يتخبط بدمه في حضني وأنـا أولـول، وأنظر إلى أبي وأخي، وهما مصابان، وأنظر إلى سعيد فأرى الصـفرة تزحـف شـيئاً فشيئاً إلى وجهه. وبصره معلق بالمصحف، الذي يـزين صـدر الغرفـة، وفجـأة يهـز السكين بيده ويشد باليد الأخرى على كفي، ويهز رأسه وجفنيه، وكأنه يطلب مـني الموافقة على ما يدور في رأسه، فلما هززت له رأسي علامة الرضى، زحفت بسـمة رضى حانية مودعة، فاحتلت أرجاء وجهه، وزينته بثقة عارمة ثم أسلم...

وفي الحال انحدرت من عيني دمعات إكبار، فبللت اللحية المرسومة بإتقان على الوجه المنير.

- ٧ -

لسنا أحرص الناس على حياة

كان أبو سائد يطلق الكلمات من فيه بسرعة عجيبة، فتخرج كالقذائف:

اخرجْ ؟! لا والذي برأ نفسي لن أخرج حتى يُهدم هـذا المنـزل علـيّ وعلـى أسرتي. وفجأة راحت عيناه تدوران في أرجاء المنزل، لتلامسا كـل جـزء منـه وكـل قطعة أثاث فيه.

استعاد شريط الأيام، قال في نفسه هذه الأرائك هناك، انتظـرتُ طـويلاً حتـى تحسنت المواسم، وجاد الكريم فاشتريتها..

تلك الغرفة الجانبية التي شيدتها حديثاً، لاستقبال الضيوف، كم استدنت حتى استطعت إضافتها إلى البيت؟

- تلك المصاطب القديمة في البيت، كم درجت عليها طفلاً وجلست عليهـا مع الأهل ليالي السمر حين كبرت.. وتزوجت، وخلفت ذرية..

- هناك في تلك الصالة، كان والدي مسجى على فراش المـوت، مـا زلـت أذكر كلماته، وهو يعاني من السكرات:

- محمد... محمد.. أوصيك: ألا تترك بيتك هذا مهما حدث؛ إنه اللجوء يـا محمد..! أتفهم ماذا يعني اللجوء؟

كلمات والده الآن تتردد في أذنيه

- إنه اللجوء... اللجوء... اللجوء... !

سدت الكلمات الأفق، ووقفت حاجزاً ضخماً دون تحركه من مكانـه، حيـث انْبتّت اللحظات من دورة زمنه، وتجسدت في تلـك اللحظـة حـافزاً قائمـاً، متنكبـاً

سلاحاً من الغضب، فهو ينظر بعينين من جمر إلى ذلك العسكري الوغد... الذي يريد أن يقتلع الجذور، فيهوي بقبضته المكورة على رأس الوغد، الذي تلقاها بأخمص السلاح..

صاح أبو سائد:

إنهم دائماً يختبئون خلف الحديد...

وجاء صوت زوجته حانياً متلجلجاً..

- في البيت ولا بك يا أبا سائد..

- أنت تقولينها يا أم سائد..؟

- نعم أقولها.. وأقولها: حياتك عندي هي الأولى...

- وكلمات العجوز الراحل؟

- الله يرحمه، ويحسن إليه... لم يكن يعلم أن الهمجية ستكون على هذه الصورة..

- ذكريات الطفولة، والصبا، والشباب، ويوم زواجنا، والذرية التي درجت على أرض هذا الحمى أين أذهب بها؟. هل تهون العشرة إلا على أولاد الحرام يا أم سائد..

كانت دمعتان حارتان تتكوران في عينيه، ونظرة إصرار وعزم تلوح في بحر الدمع المتجمع.. في حين ملأ مسامعه صوت ذلك الوغد يقول:

- هيا ... هيا لحظات ويزول كل شيء... إنهم سيفجرونه عن بعد !

استشاط غضب أبي سائد، وهاج صوته..

_ أيها النذل.. لو أنك أريتني إياهم، لأريتك ماذا يكون مصيرهم بين يدي.

- حبيبي لن ينفعك هذا ... إنك تعلم أنهم سيفجرونه، انجُ بنفسك.

- لا نجوت إن نجا هؤلاء.

وما نفع الحياة بعد هذا الذل؟؟!

وفي الحال جاءته الآية تلوح في أفق ذاكرته...:

(أحرص الناس على حياة) وردد في نفسه...

هذا الوغد يتكلم. ونفسية قومه يهود تلوح في دواخله

انقض العسكر على أبي سائد، وتكاثروا عليه، فحملوه وهو يناوشهم بيديه ويصيح..

- أنذال .. جبناء .. غرباء ..

أخرجوه بعيداً عن المنزل.. ووضعوه فوق صخرة مشرفة، كان المنزل يقبع وسط غابة من أشجار اللوز والمشمش والخوخ .. محاطة بسور من الصبار كان قد زرعه منذ عدة سنوات.

ألقى أبو سائد نظرة أخيرة على المنزل الذي آواه أربعين عاماً، حتى شب أولاده، وأصبحوا يحملون الحجارة، ليحيطوا منزلهم بسور من الشرف والأمن والحرية...

وفجأة نجمت في مخيلته جملة، تردد صداها في أرجاء كيانه:

- لعل أولادك كانوا مخطئين؟

وفي الحال ارتعش كل جسده... ووقف شعر رأسه.. ووصلت إلى شفتيه كلمة تدحرجت إلى جوفه فهمست في كيانه:

ماذا ...؟

وتبعتها جملة تلفظت بها شفتاه:

وهل في الجهاد شك يا أبا سائد..!

ليهدم المنزل ... ولتذهب أرواحنا.. ولن نكون أحرص الناس على حياة...!

- ٨ -

سيرحلـون

قال لي وهو يشيح بوجهه عن منظر تهتز له الأبدان والمشاعر وتتعبـأ بالأسـى والحزن.

- أثُراك بكلمة مقتضبة اعتصرت فيها كل مشاعري..
- اصبر ..
- إنه ابني ..!
- أعرف ذلك.
- وماذا أفعل ..؟
- اصبر فقد صبر الأولون على ما هو أعظم.

في تلك اللحظة توقفت حركة حدقتي عينيّ .. وراحت تلوح في الأفـق البعيـد أمام ناظري، صورة أبينا إبـراهيم، متماهيـة مـع مئذنـة الحـرم الإبراهيمـي، كانـت الصورة مزدوجة، تظهر عن اليمين تارة، وعن الشمال تارة أخرى، إنه يحمـل بيـده السكين، ويشد باليد الأخرى عنق إسماعيل، ويـأتيني صـوت القـارئ مجلجـلاً: "يـا أبت إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى .."

وفي الحال انتصب ولدي أمامي كعملاق جبار، ومرت صورته في مخـيلتي يـوم أمس وهو يقول:

- أبت إني ماضٍ ..
- إلى أين يا إسماعيل ..؟

- إلى الأرض يا أبت

- بالحجر ...؟!

- نعم ... بالحجر ذلك المعجزة .. ألم يأتك أن الحجر يتكلم هذه الأيام؟

واختلط في مسامعي صوت ابني باللكنات الهمجية، وأصوات الهراوات التترية، وكان إسماعيل يصيح

- أبتِ .. إنهم راحلون .. باسم الله راحلون، بالصبر الذي يرتسم على محياك راحلون، بالعزم الذي يتفطر من ساعديك راحلون ..

وما إن غاب الولد في سيارتهم.. حتى ارتسمت بين عيني إشارة فخر، وانفرج ثغري عن ابتسامة..

أتبعتها بتنهيدة طويلة، وأنا أرى ابتسامة رضى على وجه إسماعيل، الذي يفارقنا اليوم شهيداً بعد أن أخلوا سبيله، ثم اصطادوه في الشارع وهو يلقم دبابة بزجاجة، فلما اطمأننت إلى تلك الابتسامة، ربت على كتف محدثي قائلاً: بالله ثم بأبنائنا وبهمتهم سنحيا، والغزاة سيرحلون.

- ٩ -

فداء ترابك يا أقصى

انفرجت أساريره، وطافت في محياه ألوية الفخار، واحتلت رأسه معاني كثيرة، وغزت قلبه رفرفاتٌ جذلى، أودعت في عينيه دموع فرح أسطوري. غض الطرف لحظات، ثم عادت نظراته تقفز فوق المناظر، في سوق القدس المجاور للحرم، فاجتاز من خلالها الأزمان على جناح من خيال بقايا سورها المأمون؛ هنا وقفت خيل صلاح الدين، هناك كانت وقفة عمر، وهو يتسلم المدينة. ارتطمت يده بالجسم الذي استطاع إخفاءه تحت معطفه حتى الآن، فأعاده هذا الارتطام إلى صخب السوق.

حانت منه التفاتة إلى الباب الرئيسي للحرم، كانت سيارة فارهة تقف، وينزل منها بعض العلوج المرفهين، يحيط بهم سيل من جند مدججين ... هتف في نفسه بفرح:

- هذا يومك يا أبا الروح .! عادت نظراته تقفز، من مكان إلى آخر في السوق: الشارع ضيق، الحوانيت ملأى بأنواع البضاعة، الثياب معلقة على الأبواب تتلاصق بضائع المحلات على طرفي الشارع، فتشكل مظلة في بعض الأماكن، والناس يتجولون بحذر في سوق مدينتهم، فهم في أية لحظة معرضون للهجوم والتفتيش ثم السَّوْقُ إلى المجهول.

إنهم يسترقون النظر إليه، ثم يطأطئون، ويتابعون السير، دون أن ينبس أحد منهم بكلمة، فقد تعلموا هذه الأيام أن لا يطيلوا النظر إلى شيء، وقفز إلى رأسه سؤال:

- ما الذي تخبئه هذه النظرات الساهمة، التي يطلقها هؤلاء القوم؟

- أهي نظرات عتاب؟ أم هي نظرات استغاثة؟ أم هي نظرات ساهمة لا مبالية..؟

تقاطرت الأسئلة من رأسه إلى قلبه متتالية ضاغطة، فلم تدع له مجالاً للتفكير والخروج بجواب..

ضغط بيديه على رأسه، وكأنه يحاول تثبيته فوق كتفيه، لكنه سرعان ما أفلته، وعاد يرنو ببصره باتجاه الموكب البغيض. كان العلوج يطأون البوابة الرئيسة للمسجد، تحيط بهم كوكبة من الجند، المدججين بالسلاح، وفي الحال تزاحمت في أرجاء كيانه رعشة من ألم وخوف، شبيهة بالخوف والألم اللذين ينتابان الفَرِحَ القَلِق.

مدّ يده إلى جيبه، وجس ما تحت معطفه الذي يقيه برد كانون الثاني، ويساعده على إخفاء ما يريد إخفاءه، عندئذٍ سرت في جسده موجاتٌ من الرضا والطمأنينة، غسلت كيانه من تلك الرعشة.

في تلك اللحظة كانت عجوز تراقب نظراته، التي شغلها بالتفرج على البضاعة، التقت نظراتهما عند منتصف المسافة بينهما، أوحت إليه نظراتها بسؤال محير يقول:

- ألا ترى هؤلاء الأوغاد ..؟ وعندما حاول الابتعاد ببصره لاحقته النظرات بسؤال جديد:

لأي غرض تكتنز هذا الشباب ..؟

هذه المرة ابتعد كثيراً ببصره، وتحرك بجسمه، إلا أن النظرات ظلت تلاحقه؛ إذ شاهدها هناك، معلقة فوق السور، وقد واجهته بسؤال ..

هل أعجبك منظر نعالهم اللامعة يدوسون بها أرض حرمك ..؟ أم هل أعجبتك الذقون الناعمة؟

- لا .. لا .. لقد أعجبتك الحياة في ظلهم !؟ أظن ذلك؟، لا بل هي الحقيقة على ما اعتقد؟! وإلا فما الذي يُصَبِّرك على منظرهم هذا، وما الذي يوقف غليان الدم في عروقك؟ جمّد السؤال الأخير، نظراته برهة، لكن دمعتين حارتين فاضتا من عينيه، لقد شعر بهما تحرقان وجنتيه، فهمس في نفسه معتذراً لكِ الله ...!

مسح الدمع عن وجنتيه، وسوّى معطفه الـذي انفتحـت ياقتـه ومقدمتـه، ثـم اطمأن إلى ما حوله بنظرة سريعة ألقاها على كل شيء، الحوانيت، الباعة، البضاعة، الناس، لكنه حرص على بقاء نظرات العجوز بعيدة عن وجهه.

بدون إرادة منه، اختلس نظرة وقعت عليها، إنها ما تزال تراقبه وتكويه بتلـك النظرة النافذة، وسرعان ما نقل بصره عنها، ورمى به بعيداً، نحو آخر السوق حيـث مر من هناك الجنود، الذين يـذرعون الشـارع المرصـوف بـالبلاط القـديم. وعنـدما استقرت نظراته عند الانحناءة الأخيرة، حيث يغيب المارة، عدل وقفته بسرعة فائقة، وأطلق تنهيدة عميقة، وعلت وجهه علامات بشـر، مختلطـة بـاحمرار قلـق، وتحـرك لسانه فلعق به شفتيه اللتين أحس بجفافهما، بسبب ما عانى من نظرات العجوز، ثم همهم بصوت غير مسموع.

- أخيراً جاء الفرج .. ها هم قادمون .. الثلاثة.

وما إن أتم كلماته التي تحشرجت في صدره، حتى كـان أمـام العجـوز، وصـار بمحاذاتها تماماً، لدرجة أن يده اليمنى لامست حقيبتها .. فناولته زجاجة سرعان مـا أخفاها تحت معطفه، وسمعها تقول: هناك صديقان حماية لك. وتقدم بخطى سريعة نحو السيارة الفارهة أما الاثنان فقد اقتربا منه، وكأنهمـا يمـران بـه بشـكل طبيعـي، فسمع أحدهما يقول: (بسم الله .. الله أكبر) ثـم اتخـذا مـوقعي حمايـة لـه، وعلـى الفور، تقدم أبو الروح نحو الجندي، الـذي كـان في طـرف الشـارع والأقـرب مـن السيارة الفارهة، وبعيداً عن باقي جند الحراسة، فأمسك بعنقه، ثم سحبه إلى زاويـة غير مرئية، وانقض عليه طعناً، وهو يقول: بسم الله والله أكبر فداء ترابك يا أقصى.

ولشد ما كانت دهشته عظيمة حينما رأى العجوز، تربت على كتفـه وتقـول: غادِرْ على الفور، فقد ذهب صديقاك لا شُلت يمينك ...!

إلى اللقاء في المرات القادمـة ... فلمـا غادرهـا مـا لبثـت أن سمعـت صـوت انفجار ضعيف ولهب عالٍ، يلتهم السيارة الفارهة مع العلجين.

- ١٠ -

هدية العيد

تململ أبو يوسف في فراشه، وتقلب فيه كثيراً، إذ لم يغمض لـه جفـن في تلـك الليلة، حاول محاولات كثيرة كي ينام، إلا أنه لم يفلح.

كانت تلك الليلة ليلة عيد الفطر، لقد سمع التلفاز يعلن رؤيـة هـلال شـوال، كان الليـل حينـذاك قـد قـارب علـى الانتصـاف، أدار مفتـاح الجهـاز ثـم أغلقـه، واضطجع على جانبه الأيمن وسـوى فوقـه الغطـاء، قـرأ المعـوذتين ودعـاء النـوم، وحاول أن يطبق أجفانه، لكنه لم يسـتطع، لقـد كانـت صـورة ابنـه يوسـف تـراود جفنيه، فتحول دون إغلاقهما.

ها هو يوسف، إنه يتمثل شامخاً بين يديه شاب في العشرين من عمـره، شـامخ الأنف، تضج جوارحه بالرجولة والفتـوة مـن أيـن نظـرت إليهـا؛ وجـه مسـتدير، وعينان لامعتان، وقامة فارعة، ولحية سوداء فاحمة كثة.

لقد قضى يوسف نهار يوم الوقفة في حي الشجاعية الغـزاوي يلاحـق سـيارة معتدية، وما إن صار قريباً منها حتى صاح... الله أكبر .. الله أكبر، وألقى بزجاجـة كانت في يده على سيارة الجيب المعادية، ولكن رباه، ما الذي حـدث؟ قـال رفاقـه: يوسف يترنح، ثم يتباطأ، ثم يهوي إلى الأرض، حملوه إلى بيتـه.. ودعنـاه بالآهـات والدموع، وهو الآن راقد هناك تحت التراب، وأنا هنا في فراشي أحاول أن أغمـض عيني لاستقبل العيد، دون جدوى.

رفع رأسه عن الوسادة، ثم أتبعه بجذعه، ومن خـلال النـور الضـعيف الـذي ترسله "النواسة" رأى زوجه راقدة في فراشها مفتوحة العينين.

التقت نظراتهما، كان بؤبؤاها يسبحان في بحر من دمع.

- ألم تنم يا أبا يوسف ؟؟

(جاءه صوتها متهدجاً خافتاً عميقاً كصدى بعيد)

- وكيف أنام وخيال يوسف لا يفارق أجفاني ..
- عوضك بالله يا رجل ..
- أنت تعزينني .. إيه .. والله إنها لأيام الله.
- ألا تذكرين يا أم يوسف، لقد كان اليوم القادم علينا موعداً لزفاف ابننا يوسف
- وهل بإمكاني نسيان ذلك ...؟!
- إنه الآن مع الحور في الجنة يُزف إليهن، تحف من حوله الطيور.
- أرجو الله له ذلك
- الشهادة يا أم يوسف .. الشهادة ..
- الله أكبر .. الله أكبر .. أشهد أن لا إله إلا الله .. (أذان الفجر) يرتفع. مرحباً بك يا ذكر الله، لقد أنقذتني من هذا الأرق.
- وهؤلاء الأطفال النائمون يا أبا يوسف ؟
- ما شأنهم أيتها المرأة ..؟
- سوف يستيقظون بعد قليل، ويطلبون مني حاجات العيد، فماذا أقول لهم عندئذٍ.
- قدمي لهم ما يشاءون، سوف يحتفلون بالعيد كالعادة.
- ويوسف ..؟
- لا بأس عليك يا أم يوسف، سوف يكون مطمئناً في قبره .. وسوف ترين .!
- ماذا تقصد ..؟
- لا شيء لا شيء .. دعيني الآن سوف أذهب إلى المسجد.

(١)

بعد أن أدى أبو يوسف صلاة الفجر جماعة، جلس ينتظر صلاة العيد مع باقي المصلين، كانت الكلمات تتردد على شفتيه .. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر لا إله إلا الله الله أكبر الله أكبر ولله الحمد... وبين الحين والآخر كان يتفقد شيئاً أخفاه تحت معطفه، لقد تنفس الصعداء، إذ لم يفتشه الجند عند دخوله المسجد، فقد انشغل معظمهم بمناقشة أحد الشباب، فتسلل هو دون أن ينتبه لدخوله أحد، سيارة (الجيب) التي كانت تقف على يمين باب المسجد ساعدته في إخفاء جسمه الضئيل عن مرمى بصر ذلك الجندي شاكي السلاح، الذي لم يشترك في تفتيش ومناقشة ذلك الشاب، لأنه كان يقف أمام السيارة وقد أعطى ظهره لباب المسجد، مما سهل على أبي يوسف الدخول دون أن يلحظه أحد من الجناة، وعندما وصل أبو يوسف في تداعي أفكاره إلى هذا الحد، انفرجت شفتاه عن ابتسامة ارتياح، ثم أطلق تنهيدة عميقة، وقال في سره:

إنها صيد ثمين، أرجو الله أن يكون بداخلها أحد علوج يهود ..

وفي الحال ارتسمت صورة يوسف في مخيلته، وهو ينقض على سيارة الجيب، التي بادلته بالزجاجة طلقة قاتلة، ابتسامته الهادئة المطمئنة التي زينت محياه وهو راقد فوق سرير الموت، بعثت الآمال الوردية في قلب أبيه، (الله أكبر) تطمئن شيئاً فشيئاً في صدره.

أصوات تضج في رأسه، غزة يفتحها المسلمون، غزة تؤسر.. يهود يهود يهود لن يسودوا ..

لقد أدى كل النسك وهو سارح مع خياله، الخطيب الآن يعلو المنبر، إنه يخطب لكن صورة يوسف ما تزال تحجبه عن الخطبة، كلمات قليلة من الخطبة كانت تتسلل إلى رأسه وصل منها إلى سمعه:

الشهادة قمة الحياة أيها المسلمون .. حاربوهم بالأيدي، بالحجارة بالعصي بالطاعة...

(٣)

لبس حذاءه، كانت يده في جيبيه، يشد بها على الشيء الذي يخفيه، رفع ظهره بعد أن سوى هندامه، نظر أمامه، كان المصلون جميعاً قد غـادروا وهـو يـراهم الآن من بعيد، تنحنح وتظاهر بأنه يود الانصراف، كان الجندي شاكي السلاح مـا يـزال مكانه، وهو الآن ينظر إليه بعين الارتياب والشك، حاول أبـو يوسـف أن يصـرف نظره عنه، ويتظاهر بأن وضعه طبيعي .. إلا أن الجندي لم يعطه فرصة للحركة، فقد تقدم نحوه موجهاً إليه البندقية.

فجأة ضجت في رأسه كلمات الخطيب: الشهادة قمة الحيـاة ... امتـدت أمـام ناظريه صورة يوسف، تناطح السحاب، وتذكر قوله لزوجته:

- سوف يكون يوسف مطمئنـاً في قـبره اليـوم ... وتناوبـت في مخيلتـه صـور الأولاد في البيت والزوجة ويوسف والوطن الأسير، ثم استقر بصـره علـى سـيارة الجيب، وفي لحظة خاطفة كانت السيارة تشتعل والعلج يترنـح، وكـان أبـو يوسـف يركض نحو المصلين والدم يتفجر من صدره ويصيح:

أخبروا أم يوسف أن روح يوسـف اطمأنـت الآن، وعلـى الأولاد أن يعيِّـدوا ..فالآن وصلتهم هدية العيد .!

– ١١ –

فاطمـة

كانت الشمس تدلي بمراسيها نحو الأفق القريب من الأرض، فتصبغ صـفحته كلها بحمرة قانية شديدة، وكانـت الغيـوم البيضـاء الـتي غطـت تلـك الناحيـة مـن السماء، تدلي بخيوط طويلة عريضـة مصـطبغة بـاللون نفسـه، متسـللة إلى الأرض بحبال النور الواهنة الربيعية الرقيقة.

قبل قليل كان أبو أحمد يراقب جمعاً من اليافعين، الذين كانوا يجابهون مجموعـة من جنود أعداء الأرض والسلام – يهود– في الشـارع الرئيسـي مـن غـزة، ولكنـه فجأة، انقلب من محرض إلى رجل آخر، ففي هذه اللحظة كان أبو أحمـد يغـير بكـل قوته، يزيح جموع الشباب المتكتلين، ويزاحم المناكب والأرجل، لقد أظلـم العـالم في عينيه، واصطبغت حدقتاه بلون الأفق، وتأرجحت فوق جبهتـه ظـلال ذلـك العـالم القاني العاتم، واستحضر في كيانه كل معاني الرجولة، وغابت عن ناظريه كل معـالم الشارع الطويل، ولم يعد يرى إلا بـؤرة بعيـدة، تجسـدت في سـيارة يهوديـة كـبيرة، وقفت قريباً من المسجد الرئيس، حين كانت تقترب من السيارة مجموعة من الجنـود الغرباء، تجر فتاة يافعة من شعرها ويدها، بعد أن رفعوا غطاء رأسها السابغ.

كان أبو أحمد يغذ السير نحو تلك البؤرة، فقد سمع نداءً من جمهور الشباب:

أبو أحمد ... فاطمة .. ابنتك...

– ماذا ...؟

– إنهم يسحبونها من باب المسجد.. حيث كانت تلقي بالحجارة عليهم.

– كيف...

– انظر إليهم.

كانوا ثلاثة من الوحوش .. أحدهم يمسك بشعرها، والآخران يسحبانها من ذراعيها.

- آه .. يجب أن ألحق بهم قبل أن يصلوا إلى السيارة ..

- نظر أمامه ... ما تزال المسافة بعيدة.. عيناه ترميان بالشرر، وضلوعه تنطوي على مثل المراجل، ومن فوهتي أنفه تخرج الأنفاس حارقة.

- اركض برجلك...

- من أين لابن الستين أن يركض..

كانت رجلاه تصطفقان (والحطة) على رأسه يذهب بها الريح كل مذهب، وكأنها شراع امتلأ بالهواء.. وفي هذه الأثناء كان يسمع التشجيع من كل من يلقاه..

- أبو أحمد ... نحن خلفك ومعك ... لن نتركك..

- إلى فاطمة .. جميعنا نراها..

لم يعد يرى إلا أشباحاً، تتماوج في عينيه لحظات، ثم تتوارى خلف البؤرة، المجموعة التي تجر الفتاة تقترب من السيارة، وأبو أحمد يقترب من البؤرة، بينما كان يحدث نفسه

- الأرض تباع...؟! هؤلاء مجانين..! الكذبة الكبرى تتأرجح الآن تحت وطأة حجارة الصغار، (الوطن القومي) خدعة، أوهم بها هؤلاء أنفسهم كل الوقت..

واستقر أخيراً في ذاكرته المثل القائل: (لا يضيع حق وراءه مطالب)، ارتاح لهذا المثل فمد بصره إلى الأمام.. كانت المجموعة التي تجر البنت قد أخذت وضع التهيؤ لإلقاء فاطمة في جوف الشاحنة، وكانت قدما أبي أحمد قد لامست درجات المسجد أمام الرصيف.

أصبح الآن في مواجهة الوحوش الثلاثة... فانتهرهم قائلاً:

- أطلقوا سراح ابنتي أيها الوحوش الغرباء.. كان يصرخ بهم والدم يكاد

يتفجر من وجنتيه، لكن الجنود لم يأبهوا بصراخه، وانقضوا على الفتاة، يرفعونها إلى جوف السيارة.

صاح أبو أحمد..

- آه ... الأنذال، الهمج، الجبناء... وانطلق بالستين عاماً كالسهم وفي يده حجر كبير، وما إن استقرت فاطمة في جوف السيارة حتى كان أبو أحمد قد هشم رأس أحد الوحوش، إلا أن رفيقيه كانا قد أشبعاه موتاً بأعقاب البنادق... بينما كانت فاطمة تصيح مكبلة:

شهيد يا أبي .. سألحق بك إن شاء الله، وسنلتقي هناك في الفردوس.

وفي تلك اللحظة كانت الحجارة تنزل كالمطر على الجنديين حيث تجندل أحدهما، بينما دار محرك السيارة وغاب جسم الآخر شيئاً فشيئاً داخل السيارة، ونُقل أبو أحمد إلى المستشفى.

وهو بين الموت والحياة.. وكان يردد: فاطمة.. شهيد.. شهيدة.. أشهد أن لا إله إلا الله.. وفلسطين حرة.. وغزة بلا حصار.

- ١٢ -

سوف نقاومهم، ولن نخرج

رفع ظهره المنحني فوق الفأس، ومسح بإبهام يده اليسرى جبينه المتفطر عرقـاً، بينما كان يقبض بيده اليمنى عصا الفأس القديمة. ألقـى ببصـره بعيـداً نحـو الأفـق، كانت مدينة بيت لحم تلوح له من خلال سراب الظهيرة، كأشـباح متماوجـة، ركـز بصره جيداً، وجمع بين حاجبيه، لاحت له مئذنة المسـجد الـذي ألفـه، فهنـاك علـى زاوية ذلك المسجد – مسجد عثمان–، تقبع دكانه المتواضعة التي ورثهـا عـن أبيـه، وأمضى سحابة طويلة من عمره، يكدح فيها حتى حولها إلى محـل محـترم، يبيـع فيـه أنواعاً مختلفة من البضائع، منها السياحي، ومنها التمويني.

لقد أسعفته الدكان، فوسع رزقه، واستطاع خلال أعوام قليلـة أن يبنـى هـذا المنزل الجميل في طرف المدينة الجنوبي، على حافـة بسـاتين أرطـاس[1]، لكنـه الآن أغلق دكانه وعاد إلى بيته هذا، والأرض الـتي تحيط بـه، يكـد فيهـا؛ كـي تطعمـه؛ وتطعم الأفواه الخمسة، الذين يعيلهم بعد أن توقفت موارده من الحانوت المغلق..

إلى متى يدوم هذا الحال؟ (تردد السؤال في مخيلته فجأة). ثم أطلق بصره الذي استقر هناك فوق مئذنة (مسجد عثمان)، لكنه كان كلما أشاح ببصـره عنـه، عـاود رؤيته من الجهة الأخرى.

فرك جبينه فتساقطت فتائل بنية صغيرة، أمسك إحداها وراح يعبـث بهـا بـين أصابعه، وهو يقلب بصره بين الفأس، الذي استقر رأسه عند أصابع قدمـه اليمنـى العارية، وبين المئذنة التي استقر السؤال عندها ولم يعد يتحول.

عندئذ – نجم في رأسه كلام جديد، بدا له للوهلة الأولى أنه سؤال جديد.

---

(١) أرطاس من قرى بيت لحم القريبة.

- وأي حال أفضل من هذا الحال: أهو السابق.. أم اللاحق؟

فجأة انتفض صابر، انتفاضة هزت كـل جوارحـه.. لقـد اكتشـف أن الكـلام الجديد ليس سؤالاً إنه جواب على السؤال الأول.

همس في نفسه:

- حقيقة أي حال أفضل..؟

انفرجت شفتاه عن ابتسامة خفيفة ساخرة. أتبعها بكلمات هامسة.

- هِه، ليكن ما يكون، ليس هناك مـا نخشـاه، أو نخشـى عليـه بعـد أن طغـى الظلم، وساد الذل.

ثم اتجه صابر بناظريه نحو المنزل الذي يؤويه مع عائلته، كان الأولاد يلعبون في الفناء، ويتراكضون، ويصيحون، ثلاث بنات وولدان، قبل ثلاثة أشهر كـانوا سـتة، الولد الأكبر (محمود) ابن الإعدادية قتل أمام مدرسته، لأنه تجرأ وقال للعلج – ابن يهود- أنتم غرباء.. ارحلوا ارحلوا.. فقط قالها محمود، وأشار بأصبعي يـده بإشـارة النصر، وفي الحال استقرت رصاصة (شجاعة) في رأسه، فمـا كـان منـه إلا أن ودع مدرسته بنظرة عتاب: ما زالت تضج في رأس صابر حتى اليوم، وتقـول لكـل مـن حوله:

- أليس لهؤلاء الهمج علم إلا القتل..؟

- لا ... لا... لا.. ليس الأمر هكذا..! إنه الجهل، إنه الظلام، الـذي يطمـس على قلوب القردة، كان صابر يطلق الكلمات مختنقـة بـين النشـيج والـدموع، الـتي امتلأت بها حنجرته، وهو في غيبوبة تامة عما يدور حوله، فجأة قطع عليـه صـمته صوت كلمات تخاطبه مباشرة

- الله يعطيك العافية يا أبا محمود..

أدار صابر رأسه دورة كاملة، متجهاً به نحو مصدر الكـلام، ثـم قـال بصـوت

متهدج وهو يكفكف دمعه الذي أغرق عينيه:

- مَنْ.. أم محمود؟

- نعم أم محمود، لقد كنت أنظر إليك منذ ساعة، وأنت تقف هذه الوقفة، ولم تضرب ضربةً واحدة بهذا الفأس الذي تحتضنه يدك، فاسترابني أمرك، وجئت استطلع الخبر...

- لا، ليس هناك شيء يذكر..

- عليّ يا أبا محمود..

- ليس في الأمر ما يقلق.. شيء من الذكريات والأفكار خطرت في بالي، قال صابر ذلك وأمسك بالفأس ثم رفعها إلى أعلى وهوى بها على الأرض، فأحدثت ضجيجاً محبباً، ولما عاد ورفع ظهره، الذي هوى مع الفأس نظر إلى أم محمود وقال: فليغلقوا الدكان، وليهدموها وليهدموا البيت، سوف نقاومهم ونضربهم، ونأكل من فضل الله، وخير هذه الضربة، ونبت هذه الأرض، ولن نخرج.

- ١٣ -

إلا تنفـروا

أطفأ رشيد ضوء غرفته بعد أن سوّى الفراش في سريره، ووضـع نفسـه تحـت الغطاء جيداً.

كان البرد شديداً، تلك الليلة من ليالي شباط، حاول رشيد إغمـاض جفنيـه؛ كي ينام، إلا أن يداً قوية كانت تحاول شد جفني عينيه، فتحول دون إغلاقهما.

تقلب في الفراش على كتفه الأيمـن، ثـم علـى كتفـه الأيسـر، علـى ظهـره، لم يستطع الإغماض.

انقلب فجأة بعصـبية علـى وجهـه، ودفنـه في الوسـادة؛ لعلـه يسـتطيع إبعـاد الأفكار، التي تغزو رأسه، فيغمض عينيه ويرتاح.

إلا أن الأفكار هاجمته بشدة، وهو على هذا الحال، فلم يستطع الصمود، فهب كالمذعور جالساً في فراشه، جال ببصره في أنحاء الغرفة، لم يستطع رؤيـة شـيء فقـد كان الظلام يلف كل ما في الغرفة، بعد أن أطفأ النور فيها، فهو لا يستطيع النـوم – كعادته- إلا وسط ظلام دامس، وفي الحال داهمته فكرة:

- لماذا لا أضيء النور؟ لعلـني بـذلك أسـتطيع طـرد الأفكـار الـتي لا تنفـك تهاجمني.

لكن الفكرة سرعان ما انهزمت، أمام جواب حضره سريعاً:

- وكيف إذا انتبه أحدهم للغرفة المضاءة في هذه الساعة المتأخرة..؟

وفي الحال أجابه صوت من داخله:

- وماذا يعني ذلك..؟

فرد على نفسه: سوف تقع تحت وطأة السؤال والجواب، لماذا...؟ ولماذا...؟

﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: ٣٩].

رغماً عنه ترددت الآية في أرجاء كيانه في تلك اللحظة، وارتسمت صورة (عادل) أمام عينيه، حاول بكل قواه أن يطرد الصورة، إلا أن مقاومته كانت ضعيفة أمام إصرار الصورة على البقاء، حاول بيده إغلاق جفنيه، إلا أن الصورة عادت تراوده من جديد، وترددت الآية في صدره بنبرة أعلى هذه المرة، حتى ملأت عليه أرجاء الغرفة المعتمة، عندها شعر أن الغرفة تسبح في نور باهر، فلم يلبث أن ترك العنان لمخيلته، وأبعد يده عن عينيه، إنه يذكر الآن جلسة عادل أمامه وهو يحاوره قائلاً:

- إنني عادل صديقك يا رشيد، ألسنا أبناء صف واحد في جامعة الخليل...؟

وإنه الآن ليذكر جوابه السريع لعادل بلهجة ساخرة..

- وماذا في ذلك يا عادل؟ وهل جئت بشيء جديد..؟

- نعم يا رشيد نعم.. يجب أن تثق بي وبما أقول لك

- هه .. يا عادل.. يا عادل ألم أقل لك مئة مرة إننا طلاب، وطلاب فقط، وإن واجبنا هو الجد والاجتهاد، ونيل الدرجات، يا أخي لقد جرت عليّ بكلامك الكثير عن المشاركة في الانتفاضة، خذها مني، أقولها لك كلمة واحدة:

لم يحن الوقت بعد، لم يأت دورنا بعد، لقد جئت أمام الجميع الليلة بحجة المذاكرة، وها أنت تفوّت عليّ وعلى نفسك الوقت، بنقاش ليس منه فائدة الآن.

- رشيد.. رشيد.. إنك تدرس الشريعة وتعرف معنى قوله تعالى.. (إلا تنفروا...)

- ها.. ها.. عادل لا أقدر على نقاشك، أرجوك أن تغادر الآن ودون تـأخير، أريد أن أنام.

عند هذا الحد من الحوار وقفت ذاكـرة رشـيد، وراحـت الآيـة تجـوب كيانـه، صاعداً ونازلاً، وارتسمت صورة عـادل أمامـه، ولم يسـتطع أن يـواري وجهـه مـن نظرات الصورة الحادة إليه.

غادرت أفكاره الغرفة، وكشفت له بصيرته من خلف القـرون المتراكمـة. عـن صف من الجند، قليل العدد والعدد، وطفـل يحـاول أن يقفـز بنفسـه مـن جيـل إلى جيل، كـي يشـارك في معركـة لم يحـن وقـت مشـاركته بهـا، فتطـاول علـى رؤوس أصابعه.

ثم انتقلت به الذاكرة بلمحة من خلف القرون إلى يومه الحاضر، حيث قـرأ في الصحف خبر الطفل الذي لم يتجاوز الخامسة من عمره، وكان يحرض أخاه الأصغر على المشاركة في ضرب الحجارة...

عند هذه الصورة ارتسمت على شفتيه ابتسامة رضى وتصميم، وبـدون إرادة منه امتدت يده إلى لحيته الكثة، وخلل بأصابعه شعرها الأسود الفاحم، ونظر بعينين نافذتين إلى المستقبل من خلال ظلمة الغرفة، فرأى هناك خارج الظلمة أفقـاً مضـيئاً يشير بشعاع عظيم إلى صفحة كتب عليها:

(انفروا خفافاً وثقالاً..) فهمس في سره: لقد مضى وقـت النـوم يـا رشـيد... وصدق عادل.. غداً يوم آخر.

– ١٤ –

"وتكلم الحجر"

١ – مقدمة

لا تعجب إذا قلت لك إنني حجر ومع ذلك فإنني أحسُّ!! فقد أدركتني تلك الرعشة التي تناوش أجسام الخائفين عند لحظات انتقال الخطى فوق أرض مجهولة المعالم. أليست الحجارة تحارب الآن وتتكلم وتحسّ؟..

كان الضباب يلف المكان بعتمة بيضاء كثيفة، والرطوبة البحرية الدافئة تكاد تكون رذاذاً حثيث الهبوط مع خيوط الضباب المتعاظمة، وعلى بعد خطوات قليلة من مكاني، الذي أقبع فيه فلا أكاد أتحرك أبداً، يمتد الشارع الطويل الذي يكتظ كل صباح، بأصحاب الأعمال من كل الأصناف، وعلى الطرف المقابل من الشارع، تمتد في الأُفق شامخة نحو السماء مئذنة، تبدو لي الآن من خلال الضباب الأبيض العاتم، كأنها عملاق آتٍ من تلك الآماد، التي تطاولت فيها أعناق المؤذنين، لترتطم بغيوم الصيف، في حين أن العتمة لفّت في أحشائها سفح جبل المكبر، البعيد قليلاً عن مكاني، حيث تدحْرجتُ يوماً من مستقري هناك، لأتوسَّد الثرى في القاع، منذ ذلك الزمن، وعلى مسافة خطوة مني، تجمعت المياه الشتوية في حفرة واسعة، كانت مكاناً لمنزل عربي، هدمته أيدي عبثت بكل شيء، وجرفت آليات غريبة بقاياه، حتى لا تبقى له ذكرى، وتسكنه الآن رحمة السماء، التي أتاحت لي أن أنظر كل لحظة إلى صفحتها، لأرى صورة موصولة، يمتد عمودها من الحافةِ القريبة لتتصل بصفحة القمر، في الليالي الصافية النقية.

وعلى الناحية الأخرى من المستنقع النائم في حضن الضباب، تلوح المنازل المتواضعة، كخيالات خرافية، امتلأت بآمال عريضة غضة، نسجتها الساعة خلفيات أعوام طويلة السهاد غائرة الأبعاد، عديمة الرائحة، غالية الأحشاء. بعض الأنوار الخافتة تفرق خيوط العتمة البيضاء، فتبعث بلصلصات راعبة، لا تكاد تظهر حتى

تنتحر في جوف البحيرة اللصيقة، حيث في جوفها تنتهي رحلة الأضواء.

الخيوط البيضاء المعتمة تطبق الآن بكثافة غير عادية على الأنفاس، بالكاد أستطيع تحريك صدري، لقد نفد صبري، الانتظار أكل قوة احتمالي، وهدأة الليل تحاول الإطباق على آمالي، بالأمس حضر زوار جدد، إنهم يقبعون الآن إلى جانبي باطمئنان عجيب، أحدهم حجمه كبير نوعاً ما، على حافته المدببة بقعة حمراء، يحاول أن يبرزها دائماً، إذ كلما حاول أحدنا أن يدير بصره عنها، دار بتلك البقعة ناحيته،.. أملي أن أفوز بمثل ما فاز به ذلك الضيف الجديد في حيّنا، إنه يحاول تلميع البقعة الحمراء الآن، وأحاول استعجال النهار – آه كم هو طويل هذا الليل...!...

لقد حدثت نفسي بما فيه الكفاية، وانتظرت حتى مل الانتظار مني، ولقد حلمت حتى كدت أصبح حلماً. منذ عشرين عاماً أقبع في هذا المكان، لا أحد يركلني، ولا أحد يأبه بي، ولا أحد يقول لي كلمة عزاء حقيقية، أنام وأقوم، منذ تدحرجت من سفح جبل المكبر بالهم نفسه، وعلى الوضع نفسه، لا جديد... لا جديد.!

أحاول التحرش بهم، وأحاول رفع عقيرتي، لكنهم يجيبونني دائماً: إنك حجر، سقطت ولن تقوم لك قائمة، وستبقى مكانك، لا يعثر بك أحد، ولن يحتاجك إنسان...!

أواه من ذلك اليوم، الذي دحرجني فيه قدم غريب ! إنه يوم عظيم الحزن، عميق الإثم، غائر المعالم، عشرون عاماً مضت، وأنا باهت اللون، عديم الرائحة، خالي الوفاض، كسير الجناح، مهمل مهمل من كل الناس، إذا رفعت صوتي قالوا: مهرج، وإذا حاولت المقاومة قالوا: مخرب، وإذا فتحت التاريخ قالوا: دجال...!..

لا أجد من يستمع إليّ؛ ولا أجد من يأبه لحالي، أراهم يغدون ويروحون، ويدخلون في الطريق التي أستلقي على قارعتها كماً مهملاً، فإذا قُدِّر وعثر أحدهم بي، نظر إليَّ شزراً، وألقى كيلا من الشتائم، ثم نفض رجله مما علق بها من أثري،

وتابع سيره حانقاً؛ لأنه مرّ من هذا السبيل.

لقد فاتني أن أقول لكم: إنـني حلمـت حلمـاً، تزينـت بـه لأهلـي وأصـحابي وقاطني دياري، وتبرجت وألقيـت بـه شـباكي في طـرقهم، في غـدوهم ورواحهـم، تبسموا لي، وفتحوا لي أذرعهم للعناق، تبادلنا القبل، وبثثنا أشواقنا وهيامنـا، كـان الحنين يبرحهم، والغريب الجاثم داخل حزن قلـوبهم، يقتـل بسـمات الفـرح علـى أفواههم؛ فأنفاسهم ملتهبة، وعيونهم محمرة، وأنوفهم مشـمخرة، وجبـاههم عاليـة، إلا أنهم كانوا لا يزيدون عن أن يرموا رمية، ثم تجرفهم الآمال، التي يسمعونها ليل نهار، تقرع آذانهم بالوعود، وتدني الصـعاب كثـرة الطبـول والحلـو المعسـول مـن الديباج، المنسوج من لغة فاقت اللغات كلها بمطاوعتها ومرونتها وبلاغتها.

صفعني جاري الجديد بكلماته الحارة..!

– أليس لك من عمل إلا الحلم..؟!

هززت جناحي الممتد إلى جواره، حاولت محو آثار الدم، التي يزهو بهـا علـيَّ، لكنّه سرعان ما ابتعد برأسه ذي البقعة الحمراء، وأخفـاه بجناحـه البعيـد، فتحاشـى بذلك الصدمة القوية، التي قابلتُ بها سؤاله، ولما لم أنل مبتغاي، بادرتـه بـالقول: لا تتعالى عليّ يا جاري السعيد، فأنت لا تعلم مَنْ مِنّا قد يُفيد، ومَنْ مِنّا قد يكـون لـه السبق في الميدان الجديد..! فأجاب باختصار:

– ربما إلا أنني حتى اللحظة أنا الفائز..

– هذا التعالي منك يؤلمني، وفي الوقت نفسه يفرحني..

– أجابني وعيناه تحدقان بي بدهشة: وكيف ذلك.؟

– قلت: إنك تفهم ما أعني، ولا أجدني بحاجة إلى مزيـد مـن الشـرح، لحجـر ذكي مثلك.

– أجاب: حسناً هذا شعور طيب منـك، فأنـت فـرح لمـا حققتـه مـن إصـابة مباشرة، وحزين لأنك لم تجرب بعد.

– قلت: هل تظن أن ما يحدث المرة مجرد رمية ككل الرميات السابقات؟ أم أن

في الأمر تحولاً؟

- لا إن القضية هذه المرة تختلف، الآمال العريضة التي كانت تكيلـها وسـائل (أبناء العمومة)! فقدت بريقها، والقناعات التي بنيـت علـى أسـس واهيـة تـداعت الآن، وقامت قناعات جديدة، لـن تـدع فسـحة لأحـد أن يسـتريح، حتـى تتحقـق الآمال. لقد افتضح أمر مشاوير التفاوض!!

- طمأنتني طمأن الله قلبك، وأراح فؤادك، دوري آت إن شاء الله.

- دورنا جميعاً يا أخي، لعلنا سنلتقي في أماكن كـثيرة مـن بلادنـا، إذا افترقنـا نهار الغد.

- ولكنني سأذكرك دائماً بكل الخير، وسأذكر علامة الشرف هذه، الـتي تكلـل رأسك المدبب، وأقول ليت لي مثل هذا الراس..!

- كل الأشكال تفيد في معركة الأحرار يا أخي، فـلا تستصـغرن أي شـأن أو أي شكل.

- على بركة الله.

أسندت رأسي إلى كتفي، لعلـني أسـتريح.. إلا أن بصـري التقـى مـن جديـد بالنور الذي لا يزال ينتحر في المستنقع، وراح خيالي يستحضـر صـورة الفراشـات، التي تنتحر بإغراءات النور، الذي تنشره النار حولها، وجاءتني صورة الغرباء، الذين دفعتهم إغراءات شيطانية، فزينت لهم أطماعهم الانتحار في لمعان الرمال المتحركـة، التي نسجها خيالهم العقيم، حول الوطن القومي.

٢- الليـل

هرب النور من عيني، ولازمني الأرق، نام جاري الجديد، وبسمة مـن الرضـى العميق ترتسم على شفتيه، رأيت الملائكة تحوم حول رأسـه المـدبب، تقبـل وجنتيـه المتوردتين بدم الغار، سيطرت الغيرة الشديدة عليّ، ونازعت نفسـي غبطـة عارمـة، لكن آفاقي غزاها قلق وهمّ كبيران حين تصورت أنه لن يعثر عليّ أحد مـن أهلـي نهار الغد، فيضيع نهار آخر، وأنا قابع مكاني، تناوشني الأفكار المشـؤومة، ويـأكلني

الهم، ويكبلني العجز، لكنني كنت أحاول تغييب هذه الأفكار، وإبعادها من رأسي، لما تسبب لي من آلام.

- رباه ما أطول الساعات..! وما أمض الانتظار...!.
- ويأتيني صوت من أعماقي: الصبر.. الصبر.. الفوز لمن يصبر أكثر...

ويدق في رأسي صوت إغلاق سيارة، أحاول أن أتأكد من الصوت، هل هي سيارة معادية..؟ أم سيارة صديقة..؟ منذ أيام تعودت أن أسمع هذا الصوت، وفي مثل هذا الوقت من الليل الآخِر، لكنني عرفت من التجربة، أن هذا الصوت لا يأتي إلا من سيارة عدوة، تداهم البيوت في هدأة الليل، والناس نيام آمنون في بيوتهم.

سددت النظر إلى الناحية التي جاء منها الصوت، لعلني أرى شيئاً، أو تتأكد لي نوعية السيارة.. ما زال الضباب يسد الأفق، وما زالت خيوطه توهن ضوء المصابيح الكهربائية، التي تحاول عبثاً أن تنير ما تحتها، إنها تفرق هذه العتمة البيضاء إلى خيوط، نعم.. ولكنها خيوط وحزم كثيفة، لا قبل للضوء باختراقها، والوصول إلى هدفه.

والأفق، لا قبل لأحد برؤية صفحته، كل شيء يغوص في قلب العتمة البيضاء، وليس من سبيل للتعرف على هوية السيارة، إلا بالإنصات إلى الأصوات، التي تأتي من ناحيتها.

وهنا سألت نفسي: هل سأنتظر طويلاً بعد كل هذا الصبر؟ لقد داعبني هذا الشعور، وطوح بتفكيري، وذهب بتركيزي لسماع الصوت الآتي من ناحية البيوت، التي تسبح في الضباب كالأشباح.

لا.. لا.. لن يشاغلني هذا السؤال العارض..!

من هناك، باتجاه المستنقع الذي يفصلني عن البيوت، بدأت أسمع وقع أقدام ثقيلة، أبواب سيارات تفتح ثم تغلق، وجلبة اختلطت فيها العربية مع اللكنة العبرية، مع صيحات نسائية خائفة، وصوت ضربٍ بالهراوات، تأتي كأصداء

معربدة مع هدأة الليل الراعبة. وجاب كياني سؤال مستنكر:

- أهذا كل شيء يتقنه هؤلاء...؟ وفي الحال

هززت جاري النائم.. قم.. قم يا أخي واسمع!

- ها.. ها.. ماذا..؟ هل من خدمة يا أخي..؟

- قم واسمع..

- ماذا: هل جاؤوا...؟

نعم.. نعم جاءوا.. إلى متى يدوم هذا الحال؟ أهذا كل شيء يتقنه هؤلاء؟

- ألم يصلك الخبر بعد؟

- وما هو هذا الخبر..؟

- لقد سمعت البارحة من فم الشاب الذي رمى بي الجندي العدو، قولاً بليغاً!.

- وما هو هذا القول..؟ قل بربك وأسرع..

- لقد قال: لا تجزعوا أيها الإخوة، إذا ما أتى الهمج إلى بيوتكم في الليل.. فثمن الحرية غال، ومهرها كبير، وإلا فما أسهل أن يبقى الواحد منا عبداً للضرورة، فيكفيه هؤلاء ضرورته، ولكنه بالتأكيد لن يكون إنساناً بعد.

- لقد صدق صاحبك والله، وأفلح إن ثبت على ذلك.

٣- النهار

انهزمت جيوش العتمة البيضاء رويداً رويداً، أمام جدائل الشمس، التي بدأت تزحف على سفح السماء الشرقي، حيث خلا هذا الصباح من الغيوم، وبدت زرقاء عميقة، تضيع في عمقها الأبصار، وترتد إلى مآقيها تسبِّح وتنزِّه العظمة اللامتناهية للموجد الأحد.

- أين أنت من هذا الاتساع..؟

شغلني هذا السؤال – لبعض الوقت- عما أفكر فيه، وأتمنى أن يتحقق، لكنني

سرعان ما عدت إلى جاري أسأله: أما زلت نائماً..؟

أدار لي رأسه الأحمر، وحاول أن يضحك..!. فقلت له بعصبية:

– أهذا كل ما تقدر عليه..!؟ كفاك تباهياً يا أخي، فأنت تضيع مروءتك وهمتك في هذا الذي تحاوله

– هب مذعوراً.. ولسان حاله يقول: ماذا قلت..؟ أعاذني الله من هذا الشؤم!.

– على رسلك يا أخي.. على رسلك.. لماذا كل هذا الهياج؟ هل قلت كلاماً يزعجك؟

– كل هذا ولم تقل شيئاً يزعجني..؟

– لا عليك أيها الضيف، إني أعتذر إليك عما قلت. أيعجبك هذا؟

تطامن الحجر الضيف، وطأطأ رأسه المدبب قليلاً، وأرسل لصديقه ألحاظاً خجلى، فاتصل الفضاء بينهما، برسائل الوفاء والالتحام، وساد صمت قلق، قطعه وقع الأحذية العسكرية، وهدير السيارات القادم من الطرف الآخر للمستنقع.

كل شيء واضح الآن أمام الناظر إلى الطرف الآخر، معركة المداهمات الليلية، لم تجر على هواها، كما أراد لها جنود يهود، ها هم على أبواب الحي المجاور، يحاولون الدخول، إلا أن المقاومة شديدة، وحتى الآن لم يستطع هؤلاء الغرباء كسر تصميم الأيدي التي تقذف بزملائنا الحجارة. فهناك على البعد، تجمع عدد من اليافعين، وقد أشعلوا الإطارات، وجمعوا الحجارة أكواماً، بعضهم أخذ يرشق الجنود بها.

الجنود يراوغون، ثم يطلقون قنابل الغاز، نحو تجمع الشباب، أحدهم يمسك القنبلة ويردها إلى الجنود، أصوات الجنود تصل إلينا، أحدهم يصيح بلكنة مكسرة:

– هؤلاء شياطين...!.

– فيرد عليه آخر:

- كيف تقول .. إنهم أطفال..؟!

- ويصل إلينا صوت جندي ثالث..

- آمل أن لا يطول هذا الحال، إن مجابهة الجنود العرب في المعارك أهون عليّ من مقابلة هؤلاء...!

ويأتي صوت الجندي الأول: ما تقوله حق يا موشي، فإن مقابلة هؤلاء تفرغ الصبر، وتقتل الرجولة.!

- عليكم بالاقتحام أيها الجنود، لقد طال انتظاركم، جاء صوت الضابط مرتجفاً متردداً (رغم أنه داخل دبابه)، وللحظات سادت همهمات وحشرجات وهمس، ثم جاء صوت مغاليق البنادق، كانت الشمس قد قاربت على الزوال، وهي تغمض عينها حيناً وتفتحها حيناً آخر، والرذاذ بدأ يرش الطرق بزخات متتالية، فيبعث في الجو قشعريرة قارسة، ينتاب الأجسام منها انقباض ورجفات، تصنع ميلاً إلى الحركة والقفز.

وبلمح البرق انهالت الحجارة إلى جانبي، وتكاثرت، قادمة من جهة البوابة، التي تغطت بدخان القنابل، ولعلع الرصاص، فصمّ الآذان. وكانت سيارة الجيب تتقدم، يختبئ خلفها الجنود (الشجعان)! خوفاً من رجم الحجارة، التي انهالت كالمطر فوق الرؤوس المغطاة بالطاسات الحربية وبين الحين والآخر كانت تصلنا كلمات مختلفة.

- الجبناء... أيريدونها مجزرة؟ إنهم لا يتحركون إلا من خلف الدخان والآليات.

- ديفيد.. لماذا لا يأتي يتسحاق ليقتحم معنا ويجرب نفسه؟!

- لماذا نحارب في أرض غيرنا...

- فلنزرعها مسامير يا أحمد.

- موشي أمي لم تأت بنا إلى هنا من أجل هذا...

- ارم... ارم يا خالد.. ارم عبوة البنزين على الجيب، لا تتردد فقد تضيع

– الله اكبر... ولتذهب إلى الجحيم أيها الجيب.

وفجأة تفجرت إطارات سيارة الجيب، والتهمت النار مقدمتها، وينكشف الركب الزاحف عن آثار أليمة.

جندي جريح جاءه حجر في خده..

– طفل عربي في السابعة من عمره رمته رصاصة صياد خائف فأردته جريحاً..

– شباب يمسكهم الجنود من ثيابهم، ويدعونهم من الخلف بأعقاب البنادق، بينما راح آخرون يضربونهم بأحذيتهم العسكرية، كيفما اتفق.

وراح شاب يافع يلوح من بعيد، بالعلم الفلسطيني ويصيح:

– يا نزال الجبناء... الحجارة من فوقكم، وعن أيمانكم، وشمائلكم، ومن بين أيديكم، ومن خلف ظهوركم، سوف ترونها في أحلامكم، وتأكلونها على موائدكم، وتنظرونها في الماء الذي تشربون، وسوف نخبئها لكم في جيوبنا، في قلوبنا في أعيننا، في راحاتنا الطرية، سوف نقلق بها أيامكم، وتتلقونها قذائف من سجيل.

– أفلا ترحلون..؟!

٤– اللحظات الأخيرة

ساد صمت قلق في المكان، كان يقطعه بين الحين والآخر ظهور شاب من هنا وشاب من هناك، يمتطي سطح أحد المنازل، ويبدأ بإطلاق قذائفه من الحجارة، حتى يفرغ جيوبه، ثم يختفي ليسود الصمت والقلق من جديد، فيمد أذرعه على الساحة، أمام البوابة، ليغطي المستنقع، ماراً بالمكان الذي أقبع فيه، قلقاً على مصيري بعد أن تكدست إلى جانبي الحجارة المناضلة.

– رباه.. الكل شارك إلا أنا..!

– مهلك يا صاحبي مهلك: (حصة الغالي للتالي)، جاءني صوت صديقي – ذي الرأس المدبب والخد الأحمر– عميقاً دافئاً متواضعاً هذه المرة، إلا أنني شعرت

فيه بطعم السخرية والتشفي فأجبته حانقاً: ولكن يا صديقي لا تسخر من عباد الله، فأنت حجر وأنا حجر، وإذا نالك شيء من الفخر، فلا يدلك فيه، وإنما قدراً حملك أحدهم، وألقى بك، وكان حظك الذي تتباهى به الآن.

- ماذا..؟!

- هذا ما أتاك، ولعلك ترعوي عن سخريتك وشماتتك بي.

- أنا أسخر منك، وأشمت بك..؟!. معاذ الله... إنك تبالغ يا أخي.

- إذن ماذا تعني بالمثل الذي قلته..؟

- لا أعني ولا أقصد شيئاً مما يدور في خلدك، إنه مثل يقال لمن لا يأتيه الحظ في البداية، ويكون له الحظ الأوفر في النهاية، وما قصدت بإطلاق المثل إلا طمأنتك، وإدخال الفرح والأمل إلى قلبك، في حين ذهبت بك المذاهب، ورحت تفسر كلامي على مزاجك.

- سامحني يا أخي.. فقد أعياني الصبر، وأنا أرى الحجارة تنهال إلى جوارنا بالعشرات، بينما أنا ساكن ثابت في مكاني، لا أتحرك، وأنظر إلى الضيوف وأتساءل:

- ترى هل في هؤلاء الزملاء والاخوان وأبناء أرضي ومحتدي من الصفات ما يميزهم عني، ويخفض قدري.؟

- أو حقاً هذا الذي تفكر به..!

- لم أكذبك ولن أكذبك شعوري يا أخي..

- إذن فأنت في الخط السليم.. وسوف لن يخيب الله أملك، فاصبر.

- ما هذا الذي أسمع يا أخي؟ أتسمع ما أسمع؟

- نعم نعم .. إنهم مجموعات أطفال من بلادنا..

- ماذا يقولون..؟ انصت جيداً لنسمع.

- الله أكبر.. الله أكبر.. الصوت ما زال عميقاً غير واضح.. أليس كذلك؟

- ولكنه يقترب رويداً رويداً.

- اسمع .. ماذا..؟.

- لعينيكم يا إخواننا في قلنديا... وليخسأ الغرباء، الموت للغاصبين، نحن نَبت هذه الأرض نتنفس فوح معراجها، وأحلامنا معجونة من سرى ساريها..

- إنهم قادمون يا أخي قادمون.. هاهم يطأون المكان.. جاء دورك الآن، يا بطل يا مغوار.. ولا تكن منزعجاً وقلقاً.. فقد جاء الأمل.

- أحقاً ما أرى وأسمع...؟!

الأيدي الصغيرة لا تبقي ولا تذر، تضرب بيد، وتلوح بالأعلام باليد الأخرى، أجسام صغيرة، وأكف جميلة، لا تكاد تتسع للحجر، ولكنهم يتحركون بقلوب الرجال، وتطلعات الأبطال وألسنة البلغاء.

هذا ما كان يدور بخاطري، وأنا أنتظر ساعة الخلاص من الجمود والسلبية، التي أحاطت واحتوت كل كياني. بعد أن ثبتُّ في مكاني سنين عدداً.

- ها.. رباه أحدهم تمتد يده إليّ...! يلف قبضته حولي؛ إنه أسمر مفتول العضدين كاشفاً عنهما مزهواً بهما.. إنه يهندس جلستي في راحته، أمامه محتل يصوب بندقيته، إلى طفل آخر، وفي اللحظة المناسبة يطلقني، لارتطم خلال ثوان قليلة بأنف ذلك المحتل، ولأحدث خدشاً عميقاً نازفاً، فتدمع عيناه، ويختل توازنه، ويستلقي على قفاه، واستقر أمام عينيه، التي كانت ترميني بشواظ من نار، لكنني لم أكن خائفاً هذه المرة؛ فقد شاركت في إنقاذ طفل، وإبعاد يد عن اقتراف جريمة، حدقت في عيني غريمي الوحش بنظرات عتاب وتساؤل، فغض طرفه كسيراً، وهو يلوي عنقه قائلاً: لو كان يتسحاق معنا ليرى..!

أما أنا، فقد لبست ثوباً أحمر قانياً.. راح يبعث إشارات مفهومة لأخي ذي الرأس المدبب الأحمر، لقد أصبحنا وحدة في النضال... وقلت له.. الآن.. الآن بهذه الوحدة يجود التاريخ بأسمى أيامه..

- ١٥ -

قصة: حديث صحفي

مع المظاهرة

ذات يوم من أيام نيسان، كان الوقت ظهراً، والربيع يطوف في كل الأنحاء، والأرض كعروس تبرجت بكل الزينة، ثم انتفضت فأبدت كل مفاتنها، وأعلنت مزاداً صاخباً، شاركت فيه أهل الأرض، الذين انتفضوا هم أيضاً... أبو سعيد شيخ عجوز من كفرنعمة.. يتابع المظاهرة في قريته منذ الصباح.

يقول: سأعفر قدمي ساعة من نهار...!

- سأرمي وسخ هذا الجسم بمشاركة هؤلاء الفتيان...!
- عمري..؟ لا لن يكون عمري الذي أفنيته ثمناً مساوياً لهذا الوطن..!

وفيما كان أبو سعيد يجر رجله خلف العكاز الخشبي الذي يتكئ عليه بيده اليمنى، قال له الصحفي الذي يرافق المظاهرة: أبو سعيد.. أبو سعيد.. تعال بنا نتحدث ساعة، هل ترغب أن تقول شيئاً؟ لم يلتفت أبو سعيد إلى الصحفي، بل تابع نقل خطواته ببطء خلف العكاز، محاولاً اللحاق بالشباب، ولم يجب على السؤال.. بل تمتم في سره: هل الوقت وقت كلام..؟ دعني؟ ربابنة الكلام كثيرون فلتذهب إليهم..!

لم يفطن إلى أن الصحفي يتابعه، وأنه مصر على أن يجيبه على طلبه، لكنه هزّ رأسه بعلامة النفي دون أن يلتفت، ثم تابع سيره.

في تلك اللحظة كان الصحفي قد أصبح بمحاذاته من الجهة اليسرى، بعيداً عن عكازه، وتبادلا نظرات الدهشة، كل على طريقته، وعبقت المسافة بينهما بصمت صاخب، تصطرع فيه الأفكار داخل رأسيهما..

قال الصحفي بهمس: لا بد أن أقهر صمت هذا الشيخ.! لا بد... ولكن سؤالاً محيراً هتف به للتو: كيف؟ تردد السؤال في صدره مرات ومرات، ثم انطلق يدوي في أرجائه متحدياً هادراً، ثم انفلت كالسهم من بين شفتيه ماضياً في الهواء:

- نعم كيف السبيل إلى ذلك؟ قالها وقد خلل بأصابع يده اليمنى شعر رأسه، ثم انكفأ بنظره إلى الأرض، يبحث في نفسه عن حل للغز..

أما الشيخ فبالرغم من أنه تظاهر باللامبالاة، وتابع السير خلف المظاهرة الصاخبة ببطء، إلا أن العرض كان قد أخذ حيزاً جيداً في دواخله، إذ حرك في باطنه بعض التردد، حين خاطب نفسه سراً:

- أتحدث معه..؟

- لا لا تتحدث، وما نفع الحديث؟ مئات الصفحات تسود كل يوم في كل أنحاء العالم السادر ..!

- ما ضرّك لو تحدثت..؟ فقلتَ له كل ما يدور في رأسك من أفكار عن هذا الموقف العالمي المتفرج بصمت.

- ليس الآن.. لم يحن الوقت بعد.. ألم تقل قبل يومين، إنه ما زال هناك أمل في هذه الأمة، وأن الصمت سينقلب إلى موقف.

- بالضبط فعلاً، ما زال هناك أمل.. ورمى ببصره بعيداً، كان الفتيان قد خلّفوه وراءهم بمسافة قليلة، فشدّ عكازه، وسحب رجله بقوة معدلاً قامته، وغاذاً السير وهو يردد بصوت خافت:

- آه.. لقد كبرت.. كبرت فعلاً!

كان الصحفي يتابع حركاته باهتمام، وقد سمع كلماته الأخيرة التي تمتم بها، فبادره قائلاً...:

- ألم أقل لك تعال بنا نتحدث ساعة؟ لقد سبقك الزمن، اترك الأمر للشبان..

رمقه بنظرة نارية، ألهبت الجو بينهما، ثم غض الطرف، وهدأ غضبه قليلاً، وفجأة عثرت رجله بالعكاز، ولولا أن بادر الصحفي فتلقاه بكلتا يديه، لطوحت العثرة به إلى الأرض.

توقف قليلاً، وألقى بجسمه وثقله فوق العكاز، ثم سوى كوفيته البيضاء، وعقاله، وشد حزام وسطه جيداً، ثمّ نظر إلى الصحفي، نظرة بالكاد كانت تومي بالشكر المسكون بالاعتداد وقال:

- من يعثر بحجر فقد نال كل الشرف، أليس كذلك يا ... يا ....؟
- عبدالله يا والدي عبدالله.... مندوب جريدة الـ....
- قاطعه الشيخ قائلاً: لا تكمل يا عبدالله... ليس مهما أن أعرف مندوب أي جريدة أنت...
- ولكن يا عماه...
- لا لكن ولا غيره، أنت تعرف أن الوقت الآن ليس وقت كلام
- ولكن الفعل يحتاج إلى إعلان وإعلام وصوت مسموع، وأنت سيد العارفين...!
- انظر انظر..! ها هم قادمون، قاتلهم الله! الشباب يجابهونهم.

وما كاد يكمل كلماته حتى سقطت قريباً منه قنبلة غاز، وأخذت تطلق دخانها الكثيف. وعلى الفور جره الصحفي، وابتعدا عن المكان.

مع الحدث

اطمأن الشيخ في جلسته، مسنداً ظهره إلى جدار المنزل القريب، ووضع العكاز بين ساقيه، وقبض على عقفته بكفيه، ثم ألقى بذقنه على ظهر كفيه، وقال:

- هذا الذي يسجل، وكل ما عداه لا قيمة له، إن كل شيء غير هذا الذي تراه من بطولة للشباب، ليس إلا ثرثرةً وعبثاً لا طائل تحته.. نظر الصحفي إليه كانت وجنتاه متغضنتان، وجبهته متدرجة، ومحياه لا يخلو من وسامة، وثيابه وهندامه يدلان على ذوق ممتاز، نظراته يشع منها الصدق والانفعال، ممزوجان بحزن خفي. كانت تصلهم أصوات الانفجارات، ولعلعات الرصاص، وصيحات الله أكبر، يطلقها الشباب. وبين الحين والآخر، كان الشيخ يقفز من مكانه، محاولاً اللحاق بالشباب، لكن الصحفي كان يعيده إلى مكانه بدفعة لطيفة، مهدئاً من روعه بكلمة دافئة. مضت لحظات صمت، تحرك الهواء بينهما بأنفاس متوترة، قطع الصحفي الصمت، موجهاً الكلام إلى أبي سعيد، محاولاً إخراجه عن صمته:

- هناك أمل في أن يتحرك جمع المتفرجين، فيفعل شيئاً غير الكلام..!

تحركت الكلمات في الهواء، لتصل إلى أُذن الشيخ، الذي ارتعشت تضاريس وجهه، وارتجفت جوارحه، ورمى الصحفي بنظرات ذاهلة مستفسرة! ثم عاد ببصره من جديد يحدق في الأفق البعيد.

ولما لم تجدِ المحاولة في إخراج الشيخ عن صمته، راح يدير الأفكار في رأسه باحثاً عن طريقة أخرى. إلا أن الشيخ لم يمهله، بل انطلق فوق عكازه، وهو يصيح بصوت مبحوح:

- الْحَقْ بي ... إليّ... يا عبدالله، هناك بين تلك الأيدي الطاهرة سجل حديثك، وسأريك ماذا يفعل العكاز! وعنه ليكن حديثك.

ارتبك الصحفي، ومضت لحظات، قبل أن يجمع شتات فكره، ويركز حركته، وعندما حاول النهوض بعد التردد، وجد أن الشيخ قد أصبح بعيداً عنه، وخارج مجال اللحاق به، فراح يناديه بصوت يائس:

- أيها الشيخ إلى أين؟ تعال، وقل ما تشاء، وأنا على استعداد لأن أنشر لك كل ما تقول، مهما كانت النتائج...

وجاءه صوت العجوز قائلاً دون أن يلتفت إلى عبدالله:

- الذي أريد أن أقوله هو ما ستراه، لا ما تسمعه، انظر وارقب...

عندئذ اكتفى الصحفي بأن اتخذ له مكاناً أميناً، وراح يراقب الساحة أمامه، كان الشيخ قد انخرط في المعمعة، وراح يقترب من الجند المسلحين، ويضرب بعكازه كل من يجده أمامه منهم، هذا برأسه وذلك على ركبتيه، وآخر فوق كتفيه، وكان يصيح:

- فقدت الأمل من موكب المتفرجين، لا حركة، ولا حراك، إنه الضجيج بلا طحن... لا أمل إلا بالله ثم بهذه السواعد..

في البداية، دهش الجنود من جرأة هذا الشيخ، ودخلت هيبته في نفوسهم لدقائق.. استطاع خلالها أن يؤلم عدداً منهم، وأن يشتت البعض الآخر! وفجأة صاح الصحفي بصوت راعب:

- يا إلهي ما هذا؟ ذلك الوحش ينقض عليه بالحربة! ولكنه يفشل، إذ يتحاشى الشيخ الضربة بقفزة غريبة من مثله.. ولما صار خلف ذلك الجندي، ناوله ضربة بالعكاز على قفاه، استدار الجندي مذعوراً متوحشاً، وبكل الحقد الذي يمتلئ به قلبه، شد على زناد البندقية المصوب إلى صدر الشيخ وهو يصيح..

- خذها.. أيها البطل العجوز.

ترنح الشيخ هنيهات، وهو يشد بيده على مكان الإصابة.. عندئذ لم يتمالك الصحفي نفسه بل أقبل مسرعاً نحو الشيخ، ناسياً كل الأوضاع الأمنية، وما يدور على الساحة، وعندما وصل إليه تلقاه قبل أن يصل إلى الأرض، كان الشيخ بالرمق الأخير.. وهو يتمتم بحشرجة شديدة.

- هل سجلت الحديث..؟..

نعم .. نعم.. أيها العم.. وماذا تريد أن تقول بعد؟

- قل لهم.. هل عرفتهم..؟
- من هم ..؟
- المتفرجون..!..
- نعم ماذا تريد أن تقول..؟
- قل لهم: ان يكفوا عن الكلام والتفاوض، ويشدوا همتهم بالحسام..
- وماذا بعد؟
- لقد تحرك الأموات..! والدور عليهم آت.. اشـ... اشهـ... أشهد أن .. أن.. لا إله إلا الله.. وأن ... محمداً رسول الله

- ١٦ -

وجدت الرجولة

كان الليل مدبراً، والنهار مقبلاً بطلعة بهية، والرذاذ يداعب وجه سمير، فيؤنس وحدته في طريق عودته إلى البيت، في تلك الساعة المتأخرة المؤذنة بصبح جديد من صباحات أحد أيام آذار، والقمر يدلي بآخر نفحاته البهيجة مودعاً الغيمات المتراكضة المتباعدة، التي تترك فجوات كبيرة بين الحين والآخر، تتيح للقمر أن يطل للحظات، ثمّ ما يلبث أن يختفي خلف الأفق المضيء. لقد أوحى هذا المنظر الأخاذ لسمير أفكاراً لم تكن تخطر بباله، إلا في هذه اللحظة، وهنا همس في سرّه.

هل حقاً نحن مهزومون؟

داهمه السؤال بمفاجأة غير محسوبة، لكن سؤالاً آخر انقض عليه من جديد، فلم يتح له الإجابة على السؤال الأول بعد

- دجنكم (يهود) أنتم أبناء المحتل من الأرض عام (٤٨)..؟

حملق في السماء، ملاحقاً ببصره الغيمات الهاربة المذعورة، إلا أن شفتيه انفرجتا عن ابتسامة ساخرة، وجال في صدره معنىً مريح، فتمتم في سره:

إنها فكرة سخيفة يحملها السؤال الثاني...!

غير أنه توقف فجأة، وقد بدأ ضوء النهار يزحف فوق الأرجاء كلها، وبدت أمامه بلدة أم الفحم، تنام قلقة بين أشجار الزيتون والفاكهة، لكنها تبدو ساكنة، تجلس بوقار خلف السنين العجاف.

أطرق سمير لحظات، كانت حبات الرذاذ تسّاقط على شعره وجبينه، ثم

تتقاطر إلى أنفه، وتتسلل رويداً رويداً إلى شاربه الخفيف، الذي نبت مؤخراً، ثم لتنزل إلى فمه، فيلعق شفتيه بلسانه، ويتذوق طعم الحياة النازلة من السماء، فتتوارد إلى ذهنه صورة أولئك الشباب الذين أمضى معهم الليل كله بالتفكير، كانت أسئلتهم التي تطرح... ساذجة بسيطة.

فخبرتهم في أمور من مثل ما كانوا يفكرون به ضئيلة؛ فقد قال أحدهم:

- ما العمل..؟

- وقال آخر: كيف السبيل إلى المشاركة..؟

- وقال ثالث: إخواننا هناك في الضفة والقطاع يثورون.. ونحن ننام مطمئنين؟ وقال رابع:

- وهذه الشوارب واللحى.. لماذا نرعاها..؟ هل نكتفي من الرجولة بعلامات الذكورة؟ وقال الخامس:

- هل نؤمن على قول القائل بأننا أبناء دولة إسرائيل...؟!

لكنهم لم يصلوا إلى جواب، وانفض مجلسهم دون تحقيق المراد، وها هو سمير الآن يجر رجليه عائداً إلى بيته، وقبل الوصول توقف مطرقاً مفكراً بكيف، التي اندفعت إلى ذهنه بوحشية. لكنه فجأة هتف بسخرية...:

لا لن تعجزنا هذه الكيف أبداً...

كانت ثمة رياح شمالية خفيفة، تداعب الوشاح الذي لفه حول عنقه، وتُسقط خصلات من شعره الأسود الفاحم على جبينه الوضيء، لتستقر فوق مؤخرة أنفه الأقنى، فتحجب عن عينيه بعض الرؤية، وبحركة سريعة مّد يده فحك بها أنفه، ثم ردّ الخصلة إلى مكانها بلا مبالاة، وتابع سيره وهو يحدث نفسه بصوت خافت:

- لا بد من التفكير بكيف هذه؛ لأن الإجابة عليها هي التي تثبت علامة

الرجولة لنا، وإلا فإن التوقف أمامها بعجز يجعلنا في حالة مزرية.

كانت رجلاه وهو يسير تخبطان كيفما اتفق، فهو لا يستطيع التركيز في مشيته، فذهنه وتفكيره يخوضان غمار الإجابة على كيف، فيبتعدان ويقتربان، يغيبان ويحضران، وكانت خطاه متعثرة، تخبط في الوحل تارة، وتغوص في مياه الشارع المتجمعة من المطر تارة أخرى...

وكانت أصوات بعض الكلاب النابحة تعيد إليه انتباهه لفترات، ثم يضيع نباحها من جديد في خضم الضجيج الذي يحدثه ذلك الصراع المرير في رأسه، تذكر فجأة كلمات أبيه له منذ يومين، عندما كانا يتناقشان إذ قال أبوه:

- سمير.. أنت قليل الخبرة.. لا تتهور يا سمير..

فردّ على والده قائلاً:

- أبتِ.. نحن أبناء هذا البلد كالشجر، كلما كان حديث السن، كان عطاؤه أكثر..

- ولكن يا سمير الشجرة العتيقة جذورها أعمق..

توقف طويلاً عند كلمات أبيه الأخيرة التي يذكرها تماماً، تحشرج اللعاب في حنجرته وبدا كأنه يعاني من حالة اختناق، وفي الحال جاء صوت عميق، رقيق، يحدو من بعيد، تحمله متقطعاً مختلطاً بأنينها الحزين هبات الصباح، أصاخ السمع علّه يسمع الحداء في هدأة البكور، فجاءته كلمات هذا الحادي اليقظ يقول:

يا شجرة بالدار حاميك أسد وتكسرت الغصون من كثر الحسد

(آه يا حسرتي! زرعنا الزرع وأجا غيرنا حصد
يا حسرتي غير التعب ما نابنا...)

فاضت عينا سمير بدمع حار حارق، سال على وجنتيه فأثر فيهما، إلا أنه

انتفض فجأة، فمسح الدمعات الحرّى، وتمتم في سره: لا .. لا أيهذا الحادي، لن يتم لهم ذلك.. لن يكون، وحق من برأ هذا السكون في هذا الصباح المضيء لن نحقق لهم حلمهم في أن نكون مدجنين.

- ولكن كيف..؟

نجم السؤال اللغز من جديد في رأس سمير.. وأطلت من خلال النور الزاحف عيون راعبة، كلها تحملق في وجهه وتصيح: كيف؟ كيف؟ كيف؟

وردد بلا إرادة منه

- نعم كيف؟

وفجأة غاب صوت الحادي، غاب كما طلع دون إنذار، وارتفع بصر سمير ليصل قمة المئذنة القريبة التي بدت له من خلال الرذاذ عملاقاً متصلاً بالسماء، غارساً قدميه في عمق الأرض.

ألقى نظرة فاحصة أخرى على المئذنة، ثم حك رأسه المبتل بحبات الرذاذ، وحرك رجله الغائصة في الوحل، ثم همس بفرح مكبوت:

- لقد وجدتها، وجدتها.. أيها الإخوان.. وجدت الرجولة..

وفي الأيام التالية كانت سلطة يهود تبحث عمن يطبع المناشير المحرضة الثائرة في مدارسها ويوزعها على السكان في الأرض المحتلة منذ عام (٤٨) وعمن يجمع المعونات ويوصلها إلى الثائرين في المحتل من الأرض منذ عام (٦٧).

وكانت المناشير تحمل توقيع أبناء: (كيف وأخواتها).!

-١٧-

اهتزت الأرض وربت

كنت أسير هائماً على وجهي في شارع (كـورنيش) عكـا، وكانـت النسـمات المسائية الرقيقة تدخل الساحات بدون استئذان. غروب حزيراني حزين، وكان ثمة بعض الغيوم الشفقية الشفافة، تحاول حجب قرص الشـمس عبثـاً، وكانـت بعـض طيور النورس تطير ثم تحط بين يدي الموجات الذابلة، الـتي تـذوب بمجـرد عناقهـا لحبات الحصى على الشاطئ المتطامن؛ فالموجـات مهـاجرة، والحصـى مقـيم محـب مشوق.. إنها فكرة ماثلـة تنسـجها تلـك الكلمـات، تطـوق بهـا سـيلاً عارمـاً مـن الأفكار، تنثال متدافعة أمام بوابة مخيلتي، فتعبث بحضوري الذاهل

– أربعون عاماً لم تسقط قطرة غيث واحدة تقول لنا: انتظروا.. الفرج قادم..!

– يا للسماء..! رصاصية الصفحات.. مكفهرة الأديم، ما بالها..؟ لم تنـد مـن عيونها دمعة رطبة مبشرة بفرح منتظر..

– وهذا البحر.. آه من هذا البحر.. ماذا دهاه..؟

– الصحراء تغدت به قبل أن يتعشى بهـا، أيـن مـني نسـيماته النديـة، ورذاذه المنعش؟ لقد أصبح كل ذلك ذكرى غائمة غائرة الأبعـاد، لا يـأتي منهـا إلا فحـيح سموم، تغذيه الوجوه الغريبة المقيتة.

– وهذه الشوارع الخاوية من جلبة الأهل المزدحمـة بالغربـاء، أيـن منهـا تلـك الحواري الضيقة المزدحمة المؤنسة؟ وأين من جمالها ذلك السور السميك الـذي فتـك بجنرال الانتصارات مدوخ أوروبا؟.

– لقد غاب كل ذلك وراء أشباح تلك الغربة، التي هبطت علينـا منـذ عقـود طويلة ولم تفلتنا.

– وها نحن نسير في بلدنا، والغربة تملأ كياناتنا من الرأس حتى أخمص القدمين.

هؤلاء الغرباء، لا يمتون إلى ذلك العالم المتواري خلف الأسوار بصلة، إنهم لا يذيقونك إلا طعم الهوان، وإلا غصة الفراق.

كانت تلك أفكار تدور في خلد سالم؛ إذ سرح به خياله خلف أسوار العقود الطويلة، علّه يجد في ذلك العالم ما يُذهب شبح الرعب واليأس اللذين يلازمان روحه، ويحتلان أيامه معظم الساعات.

وفجأة هتف به هاتف يقول:

– لا تنظر إلى الخلف وانظر إلى الأمام.

توقف فجأة عن المسير، وراح يحدق باهتمام في الأفق البحري البعيد، وقد جال في صدره سؤال:

_ وماذا في أفق هذا البحر من جديد..؟

إلا أن هاتفاً صارخاً جلياً هاتفه من داخله بإصرار قائلاً:

– دقق النظر، وانظر بعين البصيرة لا بعين البصر، إنه الأمل طارد اليأس.

قهقه بصوت خافت، وتعبأت تضارس وجهه بابتسامة ساخرة لا مبالية، وردّ بهمس على الهاتف الداخلي بقوله:

_ نغمة قديمة كررتها الأيام على مسامعنا كثيراً: أمل... خيبة أمل.. ثم أمل من جديد.. ثم خيبة أمل.. إلى أن أصبحنا لا نفرق بين الأمل واليأس، وتيقنا أنّ هذا هو الواقع.. وعلينا أن نعيشه كما هو، شئنا ذلك أم أبينا، ومنذ ذلك الوقت أصبح الأبيض والأسود _لديّ أنا بالذات_ سواء، الليل والنهار صنوان، الفجر وعز الهاجرة في زمرة واحدة، النوم والصّحوً كلمتان لا طعم لهما ولا لون، فهما فعلان عكسيان، الحرب والسلام لفظان بلا معنى؛ فهما لا يعنيان شيئاً، وباختصار

اختلطت في ذهني المعاني والألفاظ، وأصبحت المتقابلات منها في ذاكرتي قليلة، بـل نادرة.. لا بل معدومة.

كانت الكلمات الأخيرة تتذبذب في مخيلتي، تغيـب وتحضـر، كأشـباح راعبـة، تنشب أظفارها في روحي وهي خائفة، تحاول أن تطل برأسها من حنجرتي، محاولـة أن تطأ كبرياء اليأس، التي أرخت سدولها على النفس العليلة، لتقوّلني بلسان الحال:

- ولكن هذه الأرض المتشققة كم أنبتت وأزهرت..؟

وهذه السماء الرصاصية، ألم تكن عميقة الخضرة، ندية القطرة؟

وهذا البحر.. ألم يكن سكناً وأمناً ورزقاً وافراً وحضناً رؤوما..؟

- وهذه الشوارع الغريبة، ألم تكن بلسان عربي، وإهاب عربي، وفرح عربي

- وهذه المآذن العتيقة.. ألا تذكرك بشيء عظيم نسيته؟

- أواه..! صاح فجأة، وعاد من سرحته الطويلة قائلاً:

المآذن..؟ آه، لقد تـذكرت الآن موعـداً ضـربته مـع إبـراهيم في المسـجد. وفي الحال أعطيت رجلي للشارع، وسرت بهمة الشباب إلى الموعد، حيث كـان بصـري يراقب الشمس وهي تودع الأرض لتغرق في جـوف البحـر، كانـت عيونهـا وهـي تذوب شيئاً فشيئاً توحي لـي بأسـرار جمـال الأفـق في بلـدي حـين المغيـب وحـين الشروق، وبينما كانت موجة عالية تزحف نحو الشاطئ فتخفـي جـزءاً مـن قـرص الشمس المدنف، تتالت وشوشاتها في أذني، فأثارت في نفسي أسئلة كثيرة عن هـذا الموعد الذي ينتظرني.

منذ زمن بعيد لم أدخل مسجداً لغير صلاة الجمعة.

- يا إلهي.. (همس بها فجأة). وركضت في صـدره ذكريـات وأفـراح، راح يتلوها، وكأنها مكتوبة على صفحة الأفق أمامه: حتى الصلاة دخلوها علينا.. لقـد جوفونا من الداخل، لا ليزرعـوا فينـا أمـلاً.. بـل ليقمعـوا كـل شـيء يـدلّنا علـى

الطريق، واستنبتوا فينا فسائل أفهمونا أنها آمال، ووضعوا لنا على مدى الأفق بهلوانات من أفكار وشعارات، سرعان ما انهارت، بعد أن لاكتها الكلمات الجوفاء طويلاً، قبل أن تسقط، وتتركنا هكذا مجوفين. ولاحت مني التفاتة غير مقصودة إلى ساعة يدي.

_ يا إلهي، لم يبق إلا دقيقتان على موعد صلاة المغرب، يجب أن أسرع.

شعرت بروحي هذه اللحظة ترفرف في عوالم مجنحة، أمدّني بها تذكري للموعد، إنني الآن أحس بالبشر والنور يطفحان في صفحة وجهي، لكن سؤالاً عاجلني:

- ترى ماذا يريد إبراهيم مني؟

- يجب الإسراع الآن، ودفعت بالسؤال إلى أعماقي، وفي الحال تدفق في وجهي دم الرضى والحبور، وعربدت في كياني موجة نشاط غير عادي، وغابت عن روحي معالم كثيرة من حكايات السنين ذوات العقود، حيث توارت تلك المعالم خلف احداث الأشهر الستة الأخيرة، واندلقت في صفحة خيالي فكرة جديدة تقول: لعل إبراهيم من تلك العصبة؟

حين خطرت لي هذه الفكرة كنت قد أصبحت على باب المسجد، وما إن خلعت حذائي وتقدمت خطوة في باحته، حتى قابلني إبراهيم بابتسامته العريضة المعهودة، ووقفت ذاهلاً عن تحيته، فقد شغلت بتأمله؛ إنه ذلك الوجه الصبوح، واللحية التي تزينه، والإهاب الفارع، والسحنة السمحة، التي أعادتني بقفزة سحرية إلى ما خلف سور العقود العجفاء، فرحت أقرأ في محياه تلك الحياة الزاخرة في عكا وحيفا يوم كنا أطفالاً صغاراً، جامع الجزار في عكا، وجامع الاستقلال في حيفا، وعزالدين وخطبه، والرجال، الذين يلبسون القنابيز، والكوفيات، والعُقل، ويخرجون من بيوتهم، والهمس الذي يدور ونسمع منه: إلى الجبال.. إلى الجبال.. بيعوا كل شيء واشتروا البنادق.

وتنامت في أفقي كلمات تدحرجت على شفتي همساً..

- يا إلهي.. كيف غاب كل ذلك عني طوال تلك الأعوام، فأسلمت نفسي لليأس. وعدت من شرودي، على صوت إبراهيم يهزني ويقول:

- سالم.. سالم.. ألا تُسلّم..؟

- إبراهيم عفواً يا أخي.. ومددت يدي فصافحته، ونادى المؤذن لصلاة المغرب فقلت لإبراهيم: أراك بعد الصلاة إن شاء الله. لم يكن إبراهيم بحاجة إلى كبيرعناء ليقنعني بما يريد، خاصة وأنني فهمت كل شيء من التجمع الموجود والوجوه المستبشرة الفياضة، بل اكتفى بالقول لي وقد قرأ علامات القبول في وجهي: أخي سالم: ستنطلق بعد صلاة العشاء مع مجموعة من هؤلاء الشباب من أجل جمع المعونة لإخواننا في غزة، وفي النهار لنا حديث آخر مع هؤلاء العلوج، لعلنا نغسل شيئاً قليلاً من عار الصمت على غارة الرصاص المصبوب.

- هل فهمت؟

- كنت أحدق لحظتها في وجه إبراهيم المزين بلحية زينها الشيب المهيب، وقد انهار سور العقود الطويلة أمام ناظري، واهتزت الأرض وربت وأنبتت أملاً مزهراً. ملأ عيني بأمل باهر..

-١٨-

شكراً لكم..!

دخلت أنا الصحفي إلى مستشفى الشفاء خلسة، وذلك حين أغطش ضباب الفسفور الأبيض الرؤية، و سال الرعب لهيباً في القلوب الصغيرة اللاهية بالكرة، إذ ضج المكان بجنون المتفجرة الراعبة المتشظية فوق حيز الصغار، الذين تناولوا فطورهم للتو، و لم يتوجهوا إلى المدرسة؛ لأن أيدياً وحشية فاتكة، أرادت أن تلهو ساعات و أياماً بأرواح البراءة..

لم تكن الثواني النازفة قتلاً وحرقاً وإعاقات جسدية و نفسية، إلا مثخنة برثاء الإنسان، أين مكانه ؟ أم أن اللحظة الغزية الشتوية كانت تتسربل بخطاب رثاءٍ لأخلاق الرجال؛ حيث تدثر قدر الجبن بكبر (جنرالات) يهود، النهمين لدم الأطفال، يهرعون عند كل هزيع من ليل؛ ليحصدوا الدم البريء، يقدمونه لفطير صهيون كؤوساً مترعات بنار النذالة، و بربرية صهيون التلمودية.. حتى الشمس الساطعة في الأفق الشرقي لذلك اليوم الكانوني غيبها غبار الفسفور القاتل؛ إذ صبغ وجه الصباح الندي بسواد حقد و لا أشرس ، و لا أضل ..!

تلك كلمات دارت في رأسي عندما كنت ساهماً أمام صورة (لؤي) في التلفاز، وهو يدلي بقصته لمراسل القناة التلفزيونية ، داخل مستشفى الشفاء في غزة، وعجبت من قوله :

- شكراً لكم ..

قالها لؤي للإعلامي الذي هو أنا، وكانت تضاريس وجهه شاخصة بالوجع، والجرح نازف بلا سيولة؛ والموت يترقب في كل زاوية. وزال عجبي عندما فطنت إلى أن لؤياً ربما قد تعلم في معاهد غزة أن يقابل المصيبة بالشكر، وإلا من أين له

بجملة (شكراً لكم)، يهديها للرجل الذي يقابله، ليفتح بها خطوط الاتصال مع العالم؛ إذ تهتكت هيئات النقل الأخرى، بعد أن سقطت الحمم الحاقدة من غربان مافيا تل أبيب على كل الأنحاء، و في كل اتجاه بلا تمييز .

_ شكراً لكم.. وأرسلها جملة تتسرب بقامتها المديدة إلى البقية الباقية من الضمائر ، لتفجر ينابيع الإنسان، التي غادرت قلوب القتلة من يهود مذ كانوا ..

فعيناه اللتان أطفأ نورهما للتو حقد الفسفور، المرسل من قلوب مقفرة عاقرة إلى شوارع غزة وحواريها وبيوتها وأطفالها.. إن عينيه المطفأتين، لم تزيدانه إلا إيماناً واطمئناناً، كانا بارزين في محياه، وهو يحدث الإعلامي عما كان من أمره في ذلك الصباح، فهو في حديثه العفوي الهادئ، يوحي لك أنت (المتفرج) على المأساة، أنْ لا مفر من الصمود والثبات للخروج من مأزق السجن الغزي .

وفي هذه الأثناء مدّ لؤي يده اليمنى، فتحسس بها عينيه المتنفختين، ثم أدار يده فمسح بها كل أنحاء وجهه، وصمت برهة، وكأني به يريد القول: إن الوجه الذي كانت تزينه العينان الواسعتان اللتان كانتا تقودانه في طرقات غزة العزيزة، و توصلانه إلى المدرسة، ويتلو بهما القرآن، ويوافي بهما وجه أمه الحبيبة إلى قلبه، لم تعودا تنفعان لأي شيء من ذلك، أو كأنه عندما عاد ليتحسسهما بأطراف أصابعه يريد أن يستدرك فيقول بلسان الحال: إليكم بني يعرب أرسل حزني وبثي وشكوي.. عفواً.. ولكن أجيبوني :

_ لماذا أصبحت استجابتكم خرافة..؟ ولماذا حزني و تفحم العشرات من أمثالي باتا لا يلاقيان صهيل جواد يعربي واحد في المدى..؟ أم أنكم استمتعتم بانفرادي ووحدتي أمام سيل النار الصهيونية السوداء؟! و قلتم في سركم: (يا سلامتنا).. ! فنحن اليوم زبد تجرفه السيول، ومنا إليك قُبَل الأماني الخاويات.. !!

حاول لؤي أن يعتصر عينيه، لكن الوجه الجامد حال دون الفعل، وبدلاً من ذلك حاول أن يضفي على تقاطيع وجهه شبح ابتسامة عاتبة، صاحبت حركة

حنجرته، التي ألقت إلى شفتيه الجملة من جديد: (شكراً لكم) على تفضلكم بالاستماع إلى قصتي، لكن: هل بريدكم واصل؟

وتخيلته وهو يدلي بتصريحه (شكراً لكم)، يريد أن يضيف جديداً يقول: أيها الناس، لماذا تستبيحون قمر غزة، تريدون إطفاءه بنار صهيون، وأنتم فرحون ، ترقص قلوبكم جذلاً، أن أطفأ اللهيب نور عيني، وحولت حياة ابن عمي و غيره إلى أجساد محترقة..؟

وهنا ارتطمت كلماته التي تخيلتها كافية في دواخله بإحساسي الهائج، فأحدثت في جسدي رعدة وقشعريرة عاجزتين عن أي فعل، كما العجز اليعربي المفتعل، لكن شيئاً غامضاً بقي يجول في كياني، ويرتاد دمي، ويستبيح لحظتي، ولتنطلق من بين شفتي تمتمة تقول: أأكتفي بهذا التوجع البخيل، وصوت المذياع السقيم؟ أأُصَعِّد من حنجرتي الصراخ المأسور نداءً باسمك يا لؤي؟

_ ولكن صوتاً من داخلي يردُّ على التمتمة: وكيف يصل الصراخ إلى المحزون، وماذا ينفعه..؟ وكيف سيعوض نزيف الصوت المتهالك نور العيون المطفأة، وروح الأجساد المحترقة، وفرح الأطفال المفريِّ بمنجل الشيطان..؟ قل لي : لماذا السواعد مكبلة بنار شهوة البقاء الخامل الذليل، ألم يكن أوائلنا يطلبون الموت العزيز، فتوهب لهم الحياة المذخورة بالكرامة، وتداخل هذا الصوت مع صوت آخر يقول:

_ كأنك تقول لي: إن الصراخ المأسور لن يصل إلى عيني لؤي، ولن يداعب شعره البريء بلمسات دافئة؛ فالرحيل إلى هناك بالساعد والعضد يعوزه الغضب، وأنت قل لي: متى تغضب؟ (مع الاعتذار من الشاعر) .

وحانت مني التفاتة إلى التلفاز، كان لؤي يتنهد ثم يأخذ نفساً عميقاً ثم يصمت، غير أن وجنتيه سكنتهما سرحة ، تشي بكلام مجروح، ينبت على شفا أسىً متفجر البركان، مثل نبض مخنوق، خارج من قلب عميق الأوجاع. ثم ألحق ذلك بآهة صامتة، كأنها تدلي ببوح ساخن حزين، يقول:

_ منذ أسابيع كان عيد الأضحى، ارتديت فيها بدلة أهداها لي أبي، وكان يتأملني، ويرى الأفق القادم المشرق يتربع بين يدي.. أما ابن عمي الذي أصبح جثة متفحمة، فقد ضاهاني ببدلة أخرى، فكنا اثنين نراهن أمام الرفاق متسائلين: أيهما أجمل ..؟ لكن بحر غزة كان يهزأ منا ومن (بدلتينا)، حين رشقت موجاته الثلجية واجهاتنا، بينما كنا زواراً له مع الأهل ..

والبارحة كنت وابن عمي المتفحم نجلس في المكان نفسه الذي جاءتنا فيه الغربان السوداء، نتلو آيات القرآن، تُسَمِّعها لنا الوالدة التي أبهجها حفظنا . ومنذ أيام كان معلمنا الصبوح الوجه ذو اللحية السوداء المشرقة يقول لنا: أنتم عدة الأيام؛ فالصلاةَ الصلاة، والأدبَ الأدب، والاجتهادَ الاجتهاد، والعلمَ العلم. أين هو ذلك المعلم الآن؟ سمعت أنه رحل ولن يعود..!

_ فهل يذهب ذلك كله سدىً ..

والتفت لؤي إلى الإعلامي فجأة ورفع يده ملوحاً، وهو يقول: ادع لي، فأنا مسافر للعلاج، وأرجو الله أن يشفيني، وإن لم يكن ذلك فلن أيأس، الحمد لله على كل حال، ولن تُزهق ذكرياتي بفعل الغربان السوداء، فهي زادي في طريقي، أبصر بها ما أريد لنفسي وللناس وشكراً لكم، ولمن قدموا لي المساعدة .

وحينئذ قلت في سري: لن يموت حق وراءه مثل هذا الطفل، و إن السماء مهما اكفهرت فلن تغلق أبوابها دون دعاء لؤي، فهو جزء من قافلة سمت على مرّ الزمان .

-١٩-

صرت يتيمة..!

نصوح الشاعر ينشد :

هذا العدو يكره الأشعار .. ويقتل الأطفال والأزهار

له جبين شائه منهار ...

يرهبه أن تولد الأفكار

في رأسنا المثقل بالثمار ... يهم أن يطفئنا ويطفئ الشرار

يهم أن يقتلنا ويقتل الأشعار

ويدفن الأطفال والأزهار

١- **قال الراوي:** وتفعل الأقدار فعلها المحكم ، فسماء غزة قد جفّ دمعها هذا الموسم، فَفحْلُ الشتاء (كانون) بدا جافياً هذه المرة، كما هو في كل الإقليم، و كأنه ينبئ بالحدث، وعيون الغيلان التلمودية تحتل سماء غزة، وهي ترقب كل حركة وسكنة على الأرض، التي آوت إليها على مر الزمان الأبطال المودعين لأرض الشام المباركة، ميممين إفريقيا يبتغون الفتح .. وأهل غزة (الوداع) عيونهم تدور في السماء، علّها تحظى بقطرات حرّى، تنهمل من مآقي أولئك الأبطال، الذين تزودوا يوماً من روح غزة المعطاءة لحظة الفراق، فتنبت تلك القطرات زهوراً وأطفالاً تُزين رأسهم بتيجان الغار؛ فتتجاوز بذلك سوء المصير، الذي وصف فيه الشاعر قلبه بقوله: ذلك الصامت الكئيب المتبدد، المهدد بالسقوط مثل كل المدائن العربية .

٢- **وتابع الراوي فقال:** والآن دعوني أقص عليكم نبأ تلك الطفلة الغزية الجميلة، مخضلة العينين والخدين، التي أبكت القلوب قبل العيون، حين حملتها

الإعلامية المتقنة إلى بيتها المهدم في غزة، و قد كانت فوهات الغيلان قد صمتت بعد أن أعجزها صمود الفرسان.

قال الراوي: سوف أفسر لكم فعل الأقدار المحكمة؛ قررت (الطفلة) الخروج على المألوف، فأعلنت نبأها: إنها فتاة آمنت بترابها أمانة من ربها، وضعتها في ذمة الأهل، فكانت تصب جام جهدها في دراستها، التي جعلت منها حقل جهادها المناسب لسنها و مكانها، لم تكن تدري أن الدم صار ماءً، وأن الأقزام القريبين البعيدين رهنوا أسيافهم للعدو، لكنها كانت وهي تصلي الفجر مع الوالدة، تشعل في قلبها شمعة تضيء الساعات المقبلة، وتحتفظ لها بذاكرتها بتفاؤل دانية رؤاه، ترسل به رسالة ودٍّ إلى كل أطفال العالم، و تزينه بوضوح الرجاء، كي يعملوا على تقويض الحصار بقلوبهم الصغيرة البريئة؛ إذ كانت تظن أنهم حمّلوا لمدينتهم سفن الفتح بهدايا الانتصار.

وفي ذلك اليوم الكانوني القائظ، و كان يوم جمعة، رافقت والدها إلى بيت جدتها و خالتها في زيارة ودٍّ ورحم وعرفان، وكانت وهي في السيارة ترقب الشوارع، وتتملى بناظريها كل التفاصيل، وكأنها لم ترها من قبل، وهي التي مرت بها عشرات المرات في زياراتها المتكررة لبيت جدتها، وفي ذهابها إلى المدرسة و إيابها منها. وهنا تذكرت الزميلات: فاطمة، وحنان، وخالدة، تذكرت ساعات اللهو، وساعات الجد، وتنهدت تنهيدة طويلة، ثم ألقت برأسها على كتف والدها المشغول بالقيادة، فما كان منه إلا أن مسح بيده على رأسها قائلاً:

_ ما بك يا بنيتي، هل بك مرض أو ألم ؟

_ لا.. لا يا أبي، ولكن شوقاً غامضاً يدفعني إلى مزيد من ملء البصر بمشاهد مدينتنا، وكأني في طريقي إلى مغادرتها..!

ضحك الأب ضحكة خفيفة، و ربت على ظهرها بحنان، ثم طمأنها بقوله: لا تخافي يا صغيرتي (يا ما ستشاهدين غزة) مزهوة ببحرها ورجالها وأطفالها المشوقين إليها مثلك، لا تقلقي فهذه غزة بين يديك، وغداً أعود إليك لنعود معاً إلى بيتنا

الجميل المشتاق أبداً لصوتك الحنون، ترتلين آيات الله بعد صلاة الفجر .

٣ - **واليوم الثاني يوم آخر، قال الراوي:** كانت الطفلة على موعد مع والدها ليعود بها إلى بيتهم، وكانت ترقب صعود الشمس في كبد السماء رويداً رويداً، ورغم أن (أربعينية الشتاء) كانت في عزها إلا أن الشمس كانت تدفئ الوجود، فيبعث دفؤها كثيراً من الحيوية في جسد الطفلة الجميلة التي أقلقها تأخر أبيها عن الحضور، فكانت تروح وتغدو لتطل من النافذة.. ثم تقول:

_ ها قد قاربت شمس اليوم على احتلال منتصف السماء، و ما أن مرّت بخاطرها كلمة احتلال حتى دبت في جسدها قشعريرة راعبة، و دون أن تتمالك مشاعرها وجدت نفسها تردد بصوت خافت: أين أبي، أين أبي ؟ وما إن انتهت من التفلظ بآخر حرف من حروف الكلمة، حتى ضجت المدينة بصوت انفجارات متتالية هائلة، اهتزت لها كل موجودات البيت، فما كان من الفتاة إلا أن هرعت إلى جدتها وهي تصيح مذعورة: أبي، أين أبي..؟ احتضنتها جدتها محاولة طمأنتها بأن أباها سوف يحضر، ولن يتأخر .

وتتالت الأصوات الراعبة، وهربت من مخيلة الفتاة مشاهد غزة، التي رسمتها في أثناء الطريق إلى بيت جدتها، وراحت تحل مكانها تخيلات مخيفة، وسكنت في روعها أصوات الطائرات تتتالى، وقد شاهدت بعضها تقذف حمماً لا تدري الطفلة أين و على من تقع، و لكن خاطراً رعيباً داهم مخيلتها يقول: لماذا تأخر أبي؟ أتكون إحدى الحمم قد سقطت على الأهل؟ لا.. لا.. لا يمكن أن أفقد أمي، ولكن أبي لم يحضر! أين هو، وحمودة أخي؟ مع من سألعب وأحفظ و أتلو و ألهو؟

حاولت الفتاة محو تداعيات هذا الخاطر، ولكنها عبثاً كانت تحاول؛ فقد كان الخاطر طاغياً، حثيث الغزو، يبعث في روعها هواجس متنوعة، تروح وتغدو، وتمارس عليها افتراساً لتوازنها الذي كانت تعرفه في سلوكها، وتساءلت في سرها دون أن تسمع جدتها التي تحتضنها سؤالها: ماذا حل بي، لماذا تراود مخيلتي شتى الأفكار السوداء؟ فأرى مدرستي مهدومة، وتغزوني صورة لحنان و فاطمة و خالدة

مضرجات بالدماء.

وصورة أخرى لشوراع غزة وبيوتها، وقد هدمتها الغيلان الضارية.. وقد اختلطت تلك الصور بحضور كلمات لمعلمتها قالتها لبنات الفصل: يهود لا يرعوون؛ إنهم على دين يوشع، هدم البيوت مهمة مستمرة عندهم، فعلوها من قبل، في مدينة القنيطرة السورية، التي حولوها إلى كومة من دمار، وفي مئات القرى الفلسطينية التي هدموها بدم بارد.

_ أواه.. أين أبي..؟ لقد حلّ الليل و لم يحضر، ومضى يوم ويومان وثلاثة ولم يحضر!

٤ - **وقال الراوي:** ولن يحضر! ففي دار الشفاء رووا لنا القصة، لقد أنذروا الوالد بالخروج من منزله قبل أن يقصف و يدمر، ولما خرج مع الزوجة و حمودة الابن، قصفت سيارتهم بصاروخ غادر، حولها و من بداخلها إلى أشلاء..

_ آه.. صرت يتيمة؟! واغرورقت عيناها بالدموع...

قالت الطفلة ذلك للإعلامية المتقنة، التي تبرعت بمرافقتها إلى بيتها، وكانتا تسيران فوق ركام منزل العائلة المفقودة، وراحت الفتاة تمشي أمام الإعلامية فوق الركام و تقول لها وهي تجهش بالبكاء: انظري، هذا (مريول حمودة)، كان يلبسه للمدرسة، وكانت قد أخرجته من تحت الركام، وهنا كانت غرفتي، هذا الركام هو غرفتي؟ وانتابت الطفلة موجة حادة من البكاء، بينما كان يخالط نشيجها بعض كلمات غامضة، تبينت الإعلامية منها: ذهب حمودة، ذهبت أمي، ذهب أبي.. مع من سوف أذهب إلى المدرسة؟

أمسكت الإعلامية بها واحتضنتها، ومسحت الدمع عن وجهها الذي علت تضاريسه مسحة ملائكية، وانطلق بصرها بنظرة بعيدة جادة، خيل للإعلامية من خلالها أنها تقول: مهلكم أيها البرابرة؛ فاليتيمة سوف تكبر، ولن يكون لكم مقام في أرضنا، والأيام بيننا، ولسوف ترون كيف أننا نطيل سيوفنا بأذرعنا..!!

- ٢٠ -

لا مخرج لكم..!!

وتحدثت الراوية فقالت:

قالوا: (أسطول الحرية) وتطاولت الأعناق، اشرأبت إلى غدٍ، تنتصب فيه الجوهرة (القدس) حرة، ترعاها قلوب توضأت للتو، وأيقنت أن (بيبرس) لا يقدم جزافاً، فهو لا تغريه الأكف المنافقة! ولا تقعده الدمعة المقهورة، وهو بالعضد يبتغي كشف سر الأفواه المتلعثمة بالكلمات، تلك المتخفية خلف الحروف الخادعة، الباحثة عن عذر أعمى .

وحين وضع (جودت) سليل عثمان قدمه اليمنى فوق سطح مرمرة كانت في وداعه جمهرة من نوارس عتيقة، وحين راحت السفينة تعب الموج، فتغيبه في بطنها العملاق، حدق في ساعته بعد أن اطمأن إلى المسير وقال: باسم الله.. بعد ساعات معدودة.. نكون هناك إن شاء الله، والتفت إليَّ، وقد وافته ذكريات شريان الحياة، ثم قال: "وضربت عليهم الذلة والمسكنة" .

- قلت: ماذا ؟ ومن تقصد بهؤلاء ؟

- إنهم يهود.. يهود.. ألا تدركين ؟

- بلى، إني مدركة، ولكنهم اليوم عالون..!

- إنها رميات غدرٍ يا عزيزتي وحسب! قتل، اغتصاب أرض، حصار، تجويع، عالم غادر العدل.

- وبدت عينا جودت ساهمة، تدقق في تلك الموجات المرتدة، التي يُطلقها إبحار السفينة. كان النهار ذلك اليوم هادئاً، وكان كل شيء على السفينة يبعث بالأمل.. فكل الناشطين متفائلين، تحدوهم رغائب الوصول إلى الهدف ومشاركة مرابطي غزة رباطهم، فكنت ترى تجمعات منهم تلهج بالحداء، وتجمعات تقرأ عن غزة، وتجمعات تغني حيناً بلغاتها المختلفة، فيعلو الضحك، وتغرورق العيون

بالدموع، شوقاً للّقاء المنتظر، في حين كان (جودت) إلى جانبي يستدرج سمعي بكلمات يتمتم بها بصوت خافت، وقد استدركت منها سؤاله الذي وجهه لي دون مبالاة:

- هل لاحظتِ ذلك الضباب الداكن؟

- اي ضباب تعني؟ إني لا أرى إلا نهاراً ساطعاً.

- انظري.. انظري.. ها هي غزة تظهر من بين سحب الضباب شاحبة..! دققي في تلك الموجات المرتدة عن جدار السفينة، فسوف تشاهدين خلالها غزة، ورغم أن الضباب يلف وجهها الصبوح، فهي تبدو صامدة صمود الأرض في وجه الإعصار، إنها ترد كيد الغدر، بغدائر شعرها وصدور شبابها، الذين زينوا وجوههم بلحى تقطر من وضوء، وبعيون تغازل الغد بالعزم الذي تَنْظُمُه بساتين البرتقال والليمون واللوز والزيتون، وبآمال تنير ظلمة المساء، حيث تموت مصابيح السكك من جوع تصنعه أحقاد الغدر، ويدبج مسوغاته من استمعوا لمهزلة (الروك آند رول الجهادي) في مكتبة الإسكندرية، وتابعت الراوية زوج (جودت) القول: ولاحقت بحدقتيَّ تلك الموجات ، لأرى ما يرى زوجي، ولكن شعاع بصري تاه في الدرب، إذ كانت الأطياف الخائفة تحملني على موجات هدوء مخاتل. وأدركنا المساء، وكنت أجلس على ظهر السفينة، أرقب حركات جودت، وهو يرتب أمر الصحفيين، فقد وكل إليه إمرتهم، فهو منهم، ومن الذين جربوا الإبحار على ظهر قافلة شريان الحياة.. كانت خصلات شعره الأسود تراود جبهته البيضاء العالية، امتزج بياضها بحمرة الشفق، الذي راح يتوسل لكل شيء فوق السفينة: أن يخلد للتأمل.. وبدأت سحب الظلام تلف بسدلها المعالم. وفي لحظات التأمل تلك، صافحت أذناي رنة شعر، كان يلقيه أحد الحادين العرب، فتخيلت أنه موجه إلى جودت:

في عينيك ألوان العطاء/ للكادحين الصامدين/ للبائسين/

لطفولة تشكو الظلم/ لكهولة تبغي السلام/ لصبية باعت زهور الحب في الليل العميق/ لشعب يحب الضياء، يقدس حرفاً مضاءً.

عندئذٍ شعرت بدمعتين حارتين غزيرتين، تنزان على وجنتي، فمددت يدي أمسح بها الدمعات، حيث داعبت وجهي نسمات بحرية عليلة اختلطت بخصلات شعاع القمر، التي راحت تسامر السهر، وتقهر بعض الخوف الذي بعثته ظلمة البحر في النفوس. وفجأة شعرت بكف (جودت) تداعب وجنتي اليمنى وهو يقول: أيتها العزيزة بماذا تفكرين؟

- لا شيء.. لا شيء، إنها كلمات شعرية طرقت أذني، فهدهدت دمعاتي .

- لا عليك، ساعات قليلة، ونكون هناك .. وأبطأ الكلام على شفتيه قليلاً.. ثم أضاف: هناك في غزة..!

- ولكن الليل ألقى بجرانه، نصفه أو زد عليه..! ثم من أين لك تلك الثقة الغالية بالوصول.. ألا يبتعث الخوف جنوده إلى قلبك..؟!

- في غزة الناس لا يعرفون الخوف، إنهم يلصقون الصخر على البطون ولا يعجزون، ثم هم ينتظرون الأحلام، تحملها صقور متوضئة بندى الفجر، لتضعها بين أيديهم مشاريع متحققة فوق الأرض، التي استقبلت في الزمان كل ألوان الغزو، فخرجت منها شامخة، تضيء عتمة الشام ومصر.

وتابعت الراوية تقول: وللتو ألقى (جودت) برأسه فوق صدري، وقد ارتسمت على ثغره ابتسامة رضى ممتزجة بأمل عريض، وبينما كنت أسرح شعره الفاحم بأصابع يدي، وقلبي يتفجر حباً واعتزازاً بهذا الشاب الممتلئ إيماناً، ساجداً بعينيه بين يدي رب عظيم، محلقاً بأحلامه الصقرية فوق معالم الأرض المغصوبة، تصورته أحد فرسان السرايا التي كان يسيرها رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم، أو ملبياً في جموع حجيج: لبيك اللهم لبيك، ومردداً الأمل العظيم، يتدحرج على شفتيه القرمزيتين: (سيبلغ هذا الدين ما بلغ الليل والنهار).

وفي هذه اللحظة وافانا صوت المؤذن في الباخرة، ليهدي إلينا همسات الاطمئنان والسكينة، ممتزجة بهدير كلمات كان جودت يرددها وهو يقفز في الهواء بخفة: لا مخرج لكم أيها الأوغاد.. لا حصار بعد اليوم .

وتابعت الراوية قولها: وفي هذه اللحظات، التي ردد طمأنينتها سكون الليل، وخفوت الأمواج، ودموع الفجر اللينة، وانتظام صفوف المصلين انطلقت رصاصات غادرة، وأطلت أغوال الليل الجبانة من خلف الجدران المصفحة، وجدران العموديات الجبانة.

وبالأجساد وبعض الخشب المتوفر رُدَّ المتوحشون بداية على أعقابهم، وهم المحملون بكل ثقيل من السلاح ،كالبغال تحمل ما لا تفقه مآلات استعماله..!

ورأيت (جودت) ينظم وضع الصحفيين، ليقوموا بمهماتهم، وراح وهو المصور الصحفي المبدع ، يوثق مشاهد البرابرة، إلا أن رعديداً حاول الاقتحام على الصحفيين، فتصدى له بصدره الأعزل، فبادره الرعديد برصاصة قريبة في رأسه ورصاصات أخر.. وارتبك الرعديد، فقفل راجعاً، عندئذٍ أقبلت على زوجي ألملم جراحه، غير أن روحه كانت تفيض ببطء إلى بارئها فبادرته القول:

- روحك حققت مرادها..؟

قال بحشرجة: غزة والقدس تستحقان الدم.. فلا تبك يا عزيزة.

- إنني أبكي الفراق.. وليس التضحية.. فالقضية تستحق أكثر.

- سنلتقي يا حبي في الجنة حيث لا خوف.. ولا حصار.. ولا اغتصاب.. ولا ظلم..! هناك العدل.

ألا تذكرين ما عانيناه في العريش قبل شهر؟

- نعم أذكره.. فمن تلك المعاناة، ومن هذه الوحشية اليوم ولد (جودت) من جديد.

وأغمض جودت عينيه وفارق.. ومسحت دموع الفراق وجهه المضيء، وكانت كلمات تتدحرج على شفتي تقول: إلى اللقاء يا جودت..! إلى اللقاء في زمن يحبه الله ونحبه جميعاً.. وقد بدأت هيلين توماس ذلك الزمن، حين قالت: فليعد كل صهيوني إلى البلد الذي قدم منه، وليتركوا الأرض لأصحابها..؟

-٢١-

لا.. لن نغادر..!

تكلم نزار فقال:

لا تسأليني فالسؤال إهانة

نيران إسرائيل تحرق أهلنا

و بلادنّا و تراثنا الباقي

و نحن جليد!!

غزة بين يديك، وبرد كانون عاجز عن إطفاء الحريق، السماء نار فسفورية، والأرض تحترق، والصغار الذين كان يجب أن يكونوا آمنين على مقاعد الدرس في ذلك الصباح الكانوني، لم يبق في عيونهم ما يقولونه سوى الرعب، ثم الانتقال من المقاعد إلى المستشفيات أشلاءً محترقة أو مقطعة، لقد غادرهم الأمن لحظة سقطت غادرات متفجرات يهود ضحى السابع والعشرين الكانوني، وغام في ذاكرتهم ذلك الحلم الجميل بيوم يكون لهم فيه وطن.

أواه.. ! أين أبحث عن ذلك الأمل؟ فقد طار شعر الفرسان من كتب بلادي ، والتجأ السيف إلى غمده حزيناً؛ فالفارس الأصيل رُحّل إلى الأقبية، وأصبحت أوراقنا خاوية إلا من رسائل بائسة، يغنيها الباحثون عن قامات في قمامات بني التلمود

لم يبق لي إلا أن ألاحق الشاشة الصغيرة، التي خصصت ليلها ونهارها لبث مشاهد ومشاعر غزة؛ علّني أجد فيها شيئاً مما افتقدته في شوارع الأعراب، وتفجؤك أنياب الطائرات تمزق الجثث جماعات ووحداناً، ويلتقط بصرك صورة أولئك

الأطفال الثلاثة الذين قضوا تحت وطأة تلك الأنياب الهمجية، التي ترجمت التلمـود بلغة بربرية، ولا أفحش ولا أوجـع.. كـانوا ممـددين في المستشـفى، وكـأنهم نيـام، بوجوه هي أشبه بوجوه الملائكة براءةً و رضىً، وكأن اللحظـة الأخـيرة الـتي كـانوا فيها أحياءً بين الناس قبضت فيهـا أبصـارهم أنـوار بشـرى بيـوت آمنـة، وشـوارع مطمئنة، تأوي فيها إلى جنب الله طيوراً خضراً تحفها قناديل من نـور ربـاني، رسـم تلك التضاريس المطمئنة على الوجوه، التي تبادرك بتحية البقاء لا العدم...

ومرة أخرى تخونني الذاكرة؛ فمنذ زمن بعيد غادرتنا جملٌ كنا نتغنـى بهـا علـى مقاعد الدرس أيام كنا صغاراً كأطفال غزة المتروكين أشـلاء علـى أرصـفة كـانون، كان المعلمون يصرون على أن تهتز قلوبنا، وتختزن بقول القائد الفذ: ((من هـارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلـب الـروم: الجـواب مـا تـراه لا مـا تسـمعه))..! وتنبعث أسئلة من داخلي، كانت تصل إلى حنجرتي خارجة من بين شفتي كـالأنين: كيف نسينا..؟ هل تجمدت الأحاسيس..؟ لقد افتقدنا موسم الثلج هذا العام، فمن أين تسرب الجليد إلى مروءتنا.. إلى نجدتنا، فلم يترك بـين أيـدينا سـوى لقيمـات أو بضع قطع غيار نقدمها إلى غزة آخر معاقل الشام الحبيب، وإذن فأين ضاعت نخـوة المعتصم ..؟! لقد اختبأت خلف سورة الجبن و الضياع، فلم تفصح عن أي حـراك أمام مشهد تلك الطفلة الغزية التي فقدت ساقيها بفعل همجية التلمود ؛ فأبصرناها على سرير الشفاء تقول لزائرها مراسل القناة الفضائية: "لقد حاولوا إنهاء مستقبلي، ولكني إن شاء الله سأكون صحفية أفضح جرائم يهود، سوف أتابع وأتغلـب علـى الوضع الجديد، و لسوف أرمم ما هدموه إن شاء الله؛ فـلا يـأس.. أيـن العـالم..؟! يجب أن يساعدونا".

لقد كان الكلام الرسمي فضائحاً، وكانت الشوارع تمـوج، ولكنهـا في مكانهـا تراوح، وانتظرَ فرسان غزة المدد، ولكنه لم يغادر الشـفاه، فـدبّجوا وحـدهم قصـائد الزمان، مسكونة بحروف البنادق، مزهوة بقوافي المعجزات، حتى إذا أطل الشانئون،

القابعون على أطراف الأفق يُخـدّلون الركـب، نجمـت فـوق تخـوم الـديار نضـارة الكلمات الغاليـة، متدحرجـة مـن شـفاه جـراح الأطفـال الغـزيين، متدفقـة بنـور المعجزات، فكأنها حجزت لها تذكرة على أول طائرة مغادرة سوق النفاق .

وبينما كانت عيناك تغمضان وتتفتحـان بـين الغفـو والصـحو، وقـد اخضـلتا بدمعتين حارتين، سـقطت لؤلؤتاهمـا فـوق الـوجنتين، ثـم تتابعـت حتـى تبللـت شعرات اللحية الخفيفة التي تزين وجهك، إذ بمشهد غامر لطفلة غزية عامرة بالحياة، غادرت منذ زمن سوق النفاق، تتحدث أمام بيتها المهدم في أحد أحياء غزة المدمرة، لقد وهنت الذاكرة ، فلم تستطع الاحتفاظ باسمه، أهو حي التفاح الذي كان مزهواً ببساتين التفاح؟ أم هو حي عزبة عبد ربه؟ على كل حال كانت الطفلة تتدفق بلغة فصيحة، وكأنها تقرأ من كتاب مفتوح: فقدت أخي، فقدت ابن عمي، كنت ألعـب معهما، فقدت أمي.. أمي التي كانت تعلمـني، وتحفظـني القـرآن، وتشـتري لـي مـا أحتاجه، وتضمني بحنان..! لماذا قتلوا أمي، وهدموا بيتنا، من أين لي بأم؟ ولكن لن نغادر أرضنا، فهنا أرض المحشر والمنشر .

غادرك النوم، وانتصبت جالساً، وعيناك تحملقان بتلك المعجزة وهي تتابع: لا لن نيأس، لن نغادر نحن أصحاب الأرض..

وتنهدتَ تنهيدة حرّى قائلاً: رباه لقد و جدتها! ولكن:

- من أين لأطفال غزة تلك الفصاحة؟

- من أين لهم تلك الشجاعة و الصمود؟

- من أين لهم ذلك الصبر الفـذ و التحمـل الـذي ضـاع منـا نحـن المتفـرجين الخاوين؟

- كيف حازوا على كل ذلك القول المعجز؟

لن نغادر أرضنا..! آه.. لا بـد أنهـم تعلموهـا مـن الفرسـان، الـذين صـنعوا

قصائد الزمان؛ فهم في مدارس المساجد تخرجوا، وعلى الأيـدي المتوضـئة تربـوا و ترعرعوا .

- وماذا عساك تفعلين أيتها البنت الفصيحة الصامدة، وأنتِ سـاهمة تنظـرين إلى بيتك المهدم، وللتو ودعتِ جثث الأحبة؟

وخِلت أن بضع كلمات تدحرجت على شفتي الطفلة تقول:

- صحيح أنني حزينة، ولكن حزني قوة وعزم، لن يقعدني أبداً..!

لقد حرقوا مزارعكم: التفاح والبرتقال والزيتـون والرمـان والعنـب، دمرتهـا أنياب الجرافات، والأحباب غادروا وأنت صغيرة؟ وخيل إليك أن الطفلـة بعـد أن أرسلت ناظريها إلى الأفق الموصول بالبحر تجيبك بلسان الحال:

- أنا صغيرة، ولكن آمالي كبيرة، وهمـتي لم تهـن بـل تعملقـت، ولـن نغـادر أرضنا، ولسوف نعيد الحياة لكل شيء إن شاء الله.

لقد بعثت هذه الكلمات في ذاكرتك إنشاداً لشاعر يقول:

أنا مسؤول عـن هـذا الـوطن الجميل/ الـذي رسمتـه مـرة بانتصـاراتي/ ومرة بفتوحاتي وأوسمتي، ومرة بانكساراتي و دموعي

وودِدتّ لو أن جملة: (لن نغادر) تُستنسخ في كل آفاقنا، لـتردد كـل الشـوارع: كم كبا الجواد ثم نهض فكان طوداً هزم كل الظلام. و كلمـات تلـك الطفلـة هـي البرهان .